إيمان الدواخلي

الهاسة

رواية

المحلسة

الكتاب : المحلسة

المؤلف : إيمان الدواخلي

تصميم الغلاف : عمرو الحو

تدقيق لغوي : إيمان الدواخلي

رقم الإيداع : 2014/21137

الترقيم الدولي : 978-977-778-004-9

الطبعة الأولى : 2015



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

المحلسة

رواية لـ

إيمان الدواخلي



مقدمة!

حلوة السما جدا

مشتاقة للمساجين

بس السجين برة الجدار خيبان

ساب السما تشتاق!

إيمان الدواخلي

تقديم لابد منه

▯ مَخْلَسة: (اسم)

مَخلَسة مصدر محلَسَ

▯ محلَسَ: فعل

محلَسَ يمحلِس مَخلَسةً فهو مُمحلِس والمفعول مُمحلَس

محلسه من المدير: قرَّبه إليه

إبليس لم يكن يريد العرش

(1)

طفلة صغيرة، وطفل صغير.. يعلوهما الجسر. ينفث عادم السيارات، من بين ألواح الصلب المشكّلة سوره المشوه جراء حوادث عديدة صرّت فقام من بالأسفل للرؤية في فضول، وفي أحيانٍ سقطت جثة أو سيارة أمامهم، فأصبحت حكايتهم لأيام كثيرة تالية، وبقي أثرها مجرد انكسار منسجم مع انكسارات سبقته وأخرى ستلحقه. تحت ذلك الجسر، في ذلك الفراغ الذي لا يكفي ارتفاعه سير الكبار، تلاصق الطفلان، حولهما بقايا ما يخرجه البشر من بطونهم، تتصاعد رائحته لأنفهما، دون أي تعبير للاشمئزاز، أو لإدراك أن تلك الرائحة مفترض بها أن تثير فيهما إحساس ما.

الطفل والطفلة لا يعيران الرائحة انتباها، ولا يعيران السوق اهتماما.. ولا يعيران أمهما احتراما.. شاردان معا، ومشهد من فيلم ليس لأقل من 18!..

سميّة هناك، تفترش حزم الجرجير أمامها، تناول زبونتها بضعة جنيهات معدنية، باقي ما دفعت فيما أخذت، وتتابع بطرف عينها أحداث الفيلم. تنصرف الزبونة، تقفز بائعة الجرجير مسارعة، فتفاجئ الولد بلطسة على قفاه. ولأنه لم يرها في قدومها، يختل توازنه، ويكاد يتوقف قلبه من الخضة.

الطفلة.. في الثامنة، تصغره بثلاثة أعوام، لا تبدو ببراءة الثامنة وهي تلملم نفسها، وتجري بعيدا عن يد أمها الباطشة.

بعض السباب ينطلق من حنجرة لا حيلة لها إلا تمرير بعضٍ من هواء الزفير خلال أحبالها، ليتحول ألفاظا اعتادها أهل السوق من صاحبة

الحنجرة، الحسناء ذات الملامح الحادة والطبع الأكثر حدة، كلما هربت منها الصغيرة. يرد عليها بعض من صياح رفيقات افتراش الأرض محرمًا عليها القسوة على الطفلة، وربما داعيًا عليها بأن "منك لله يا مفترية"!، تعود بعده إلى مكانها، لتستقبل زبائنها بقلب شارد، وعقل لا يشرد عن الحساب.

قرب المغرب، تلملم المشنة التي فرغت، والخيش الذي جف، وتنادي الصغيرة - كعادتها - بما تظنه الفتاة تدليلا، فتهرول الصغيرة إليها تتشبث بذيل جلبابها الأسود، وتلهث ملاحقة خطواتها الواسعة، بينما لا يظهر أثر لأخيها، في روتين يتكرر كل يوم.

....

لاحت الدار على أطراف السوق، حيث يجلس على بابها السَّيد. السَّيد، شيخ -في عمره، وليس كصفة تطلق على أهل التدين- قعيد، صدقت فيه مقولة إن كل ذي عاهة جبار، لسانه يجبر مجالسه على جعله كبيرها، لو تجرأ أحد على نظرة لعاهته، متعالية أو مشفقة، فالنتيجة سواء، وقد جلب ما جلب لأمه، التي لا بها ولا عليها مما فعل ابنها من جرم في حق سيّد الألسنة العفنة في الحارة. رغم ذلك، فالعجوز ليس واصلا إلى تلك الدرجة من القتامة التي تبعد الناس عنه، وتظل فكاهته تفرض له قبولا بين كثيرين.

سميَّة زوجة أو لاجئة لدى السَّيد، مستكبرة في نفسها صاغرة في واقعها، ليست سعيدة أو تعيسة، وإنما فقط راضية بالحياة إلى جواره وخدمته. تقول لصويحباتها في السوق حين يتحاكين إن أسوأ ما فيه رائحته، إذ ينتظر عودتها لتنظف تحته. تكمل وهي تضحك أن هذا من ألطف سيئات الرجال على أي حال. تقول لنفسها وهي تنظفه إن أمه أسمته السَّيد

ليكون نصيبه من اسمه أن يصبح سيدها، بدعاء في ليلة فتحت فيها طاقة في السماء.

تصغر سميَّة زوجها بسنوات كثيرة: ليس لها شهادة ميلاد ولا بطاقة كي تعرف عددها. كل ما تعرفه أن هذا البيت ملكه. يوفر لها وطفلها المأوى، مقابل خدمته. هي ليست عاهرة لتبيع نفسها أو تغلق بابًا عليهما - رغم عجزه - إلا بورقة زواج عرفي.. اشترط أن يكون عرفيا، كي لا تشارك أبناءه ميراثه –الذي لا تدري ما هو-: ورضي الأبناء بزيجة تحمل عنهم خدمته ولا تحرمهم خيره.

مشلول السَّيد بكل نصفه السفلي.. هذا يعني أشياء كثيرة.. بدءًا من مشقة خدمته، وقرف الغيار له، حيث يفتقد صمامات الإخراج ويتأقلم على روائحه بلا نفور.. وانتهاء بانتقال ذكورته إلى أصابع يده، بدلا مما شمله الشلل.

الطفلان يحبان السيد. سابقا، كانت تتركهما معه، وتنزل للسوق.. لتبيع لا لتشتري. في حوش الدار تزرع الجرجير، تحُشُّه في الفجر، وتربطه بشكل حزم ترصها في مشنتها، وتتمتم إن مع العسر يسرا.. هكذا سمعتها وأحبتها، ولا تعرف لها تكملة، ولا يهمها أن تعرفها.

سميَّة لا تصلي. تقول إنها لا تحفظ التحيات فلا يمكنها الصلاة: والله غفور رحيم!.. حين تسمع ابنها يحفظ آيات القرآن في مدرسته، تقول له: "أهو أنت اللي هادخل الجنة بِك يا ابراهيم.. اقرا كده ولما تكبر شوية تبقى تعلم امك الصلاة.. وان مت، تبقى تقضي الصلاة بدالي".. حينها تغار البنت -عيدة اسمها- وتجري إلى السيد. هي تناديه (بابا): لم تعِ غيره أبا، وهو دومًا

يدللها، ويسمح لها بالنوم بجواره. أمها غير مسموح لها بتلك الرفاهية، إلا حين يطلب جسدها.

إبراهيم أيضا يحب السَّيد، فهو أقل حدة من أمه. إنه يكلمه فيما لا تسمح سميَّة بالكلام عنه، يضاحكه في بذاءة، يشرح له ما يجِدُّ على جسده مع دخوله إلى المراهقة، وكيف يستكشفه.. قد يساعده أحيانا في اكتشافه بلا حياء.. ثم لا يتدخل حين يقترب إبراهيم من أخته، متصنعا عدم ملاحظتهما ومستمتعا بالمشهد.

ترتاح سميَّة إلى العجوز السَّيد في حالين يكسران ضجرها المكتوم به. ذلك حين يستطيع تهدئة خلاف لها مع الطفلين، فهما يحبان نصحه، ويعتبرانه أمرًا على رأسيهما واجب النفاذ، فينقذها من جدل طويل وعصبية لا تنقصها بعد نهار بطوله في السوق. وحين تسامره فتقرأ له فنجانه، بعد أن يشرب قهوته ذات السكر الزيادة، رغم مرض السكر الذي بدأ يبلي أطرافه بالتهاب مزمن. يسمع منها باهتمام، ويصدق ما تحكي وترى، ويؤكد أنها موهوبة إلى حد يذهله، حتى إنه بدأ يحضر بعض أصحابه لتقرأ لهم فناجينهم.

بينها وبين نفسها، تقسم بقطع ذراعها إن لم يكن يأخذ منهم أجرا مقابل ذلك، فقد بات حضور بعضهم أمرًا شبه يومي. لكنها لا تنفي أن قراءة الفنجان تمنحها متعة، ربما هي كل ما تعرفه في حياتها عن المتع منذ سنوات كثيرة.

(2)

جمال العين كله في أنك لا تراها كاملة.. تخيل أن تراها كرة مكشوفة بغير الجفون!.. الحقيقة مخيفة، وإخفاؤها هو جمال الحياة. إنه فكر يريح من يؤمن به من نقاشات متفذلكي الرقي الأخلاقي، فيقبل كل شذوذ عن المعروف والمعتاد والمفروض والواجب.. والحلال المباح كذلك، بعقلٍ مقتنع. فقط الواقع هو المبدأ، وهو نقطة الانطلاق، وهو حيث نحن بلا تجمُّل..

يتنهد، ثم يستكمل تأصيل الدرس في نفسه قبل أن يضع توقيعه على الورقة أمامه.. يتأمل تلك الواقفة في ثوب يحمل علامة بيت أزياء باريسي، يتذكر أنه من أهداه لها منذ فترة، مكافأة على شيء ما لا يذكره. يبتسم.. إن المال والنفوذ حوله جفنتان حنونان، يجمِّلان الواقع، ويحرسانه من قذى مفتعلي الذِمم.. سكرتيرته دليل حي على ذلك.

ينقل بصره إلى ذلك الكهل الأنيق المنتظر.. إنه صغير، وسيظل صغيرا في مكانه، وسيظل مكتفيا بأنه العبد القريب للسَّيد الكبير. الصغار يولدون وهم لا يمتلكون جفونا، فهي تنبت للكبار فقط، وقليل جدًا من يكبرون. ولذا، فموظفه هذا سيظل آية في القبح ما عاش من العمر، يستفيد الآخرون منه إنجازًا، وينفرون من معرفته عدا ذلك.

يقول السَّيد نوّار - ونوّار هو اسمه في الواقع، أما السَّيد فصفة لا يتنازل عنها- يقول دائما لمن يعملون معه.. إن البعض ينتفخ، لا يكْبر.. أولئك تنمو

لهم أجفان كتلك للطيور، نصف شفافة، تضبب الرؤية أمامهم، فينتهون.. لا هم نالوا العيش في زاوية الأمان، ولا هم نالوا من طموحاتهم شيئا!..

ويقول أيضا السَّيد نوَّار -وهو أحد من كبروا وامتلكوا الجفون- إن علاقاته بأهله لا تحمل ودًا من داخله، فقط بعض المصالح، وبعض الضرورات لدفع الضرر، فالتشهير صناعة الصحافة الأولى، ويجب اتقائه ببعض البر بالأقارب، فتضرر السمعة يضرر الخزائن.

الأهل! أي أهل أولئك الذين لا يجمعك بهم سوى لقب يعود لثالث جد، ثم لا شيء آخر؟! يؤمن بأن من يفخر به منهم فليس ذلك حبا في القلب له، بل هو تكاسلهم عن بناء فخرهم الخاص. ويقول.. إن انتماء اسمه لنفس العائلة يعطيهم فرص عمل، وحلولا لمشاكلهم، ووساطة في أماكن شتى، وحتى فرص تزويج بناتهم. هذا بالأكيد يكفيه برًا لهم، إن كان عليه أن يبرهم دون سبب واضح أو منطقي أو فيه ذرة مبادلة للمنفعة.

يتنهد نوَّار.. يجذب غطاء القلم، ويوقع الحكم بتضييع أحد الصغار عديمي الأجفان ممن يحملون لقب عائلته، التي يشك في نسبه إليها..

– ما فيش مخلوق يعرف عن الموضوع ده وإلا مش هتطلع عليك شمس.

يهز الموظف الأنيق، الذي لولا حضرة السَّيد لكان عظيما بين الحضور، رأسه بالتفهم، ويأخذ الأوراق، وينصرف في صمت. يتابعه السَّيد نوَّار وقد بدا عليه الأسى، فتهم علياء، السكرتيرة، بالتخفيف عنه، فتقول له:

- لو الموضوع مضايق سيادتك بلاش، احنا ممكن....

ينتهي الكلام.. نظرة منه كفيلة ببتر الكلام وتجميد الواقفة تلك في وضع تكاد معه تطلب الإذن لتسارع إلى دورة المياه قبل أن يفتضح رعبها من تلك العين النارية. يتركها فيما هي فيه لدقيقة، ثم يشير لها أن تذهب، فتنجو بضغطها من مزيد من الارتفاع، وتغادر في صمت خطواتها، فهو يكاد يحظر عليهم لمس الأرض في الخطو. يتابعها وهو ينفخ ضجرًا ويستغيث من بقايا ضعفه، ويتساءل إلى متى سيفكر في تلك الكائنات المحسوبة على البشرية قبل اتخاذ قرارته، فهذا ضد ما يريد لنفسه تماما.

زوجة نوَّار تشبهه كثيرًا، هي أيضًا لها أعمالها الأصغر، التي تنشغل بها، ولكن ليس لدرجة أن تملأ حياتها. تؤمن بحقها في جني السعادة من وراء العمل، وليس بأن سعادتها متلخصة في نجاحها العملي أو هزيمة غريم.

علاقتهما مرضية.. بكلا التشكيلين، مُرْضِية ومَرَضية. إنهما يخلصان النصيحة بحميمية في كل أمور العمل والمصالح، يرفضان النقاش في مواقع الخلاف؛ كلاهما يعرف مسبقًا أنه لن يتنازل عن رأيه، وتضييع الوقت في جدل هو خيبة لا يحبانها ولا تليق بالكبار. كرجل وامرأة يشتاقان لبعضهما كل فترة، فقط كل فترة، فهناك شيء لم يستطيعا توليده ليدير طاقة الرغبة بينهما كما ينبغي. لكن الفراش ليس مشكلتهما الكبرى، فضميرهما لا يضار من التفكير في بعض التعويض الخارجي.

السَّيد نوَّار لم يكن ليتزوج إلا سيدة مجتمعات تشرِّفه في حفلات العمل، ويحسده الآخرون عليها. نورهان مثالية لهذا الدور، بعد زيجتين فشلتا

بسبب سذاجة متطلبات الأنثى الرومانسية التي تشعره بالغثيان. ليس معنى ذلك أنه لا يجيد الغزل وإشباع النساء؛ ولكن له ذائقته الخاصة، فهو يفعل فقط حين تثيره المرأة وتشده بغرابتها عنه.. وذلك لا يتوافر أبدًا في زوجة مستديمة.

حتى سكرتيرته ذات القوام المليح، لم تمثل لدى شهوته أكثر من تافهة فرحت بثوب يحمل ختم باريس مقابل عفافها، الذي هو غير متأكد منه، رغم تأكيداتها. إنها مستديمة أيضا، فهو لا يحب تغيير موظفيه، وهذا يرفع منها وظيفيا، ويرسلها بعيدا جدا عنه كامرأة.

إنما هن الفقيرات المتعافيات، نقيضات صاحبات الرقة الأرستقراطية أو متصنعاتها، أو المثقفات المتحررات كما تدعين لأنفسهن.. إنهن تلكن اللاتي تسخرن من الترقق إن صادفتهن صاحبته، وتقفن في قوة وسط الرجال، ورغم حاجتهن تستطعن حماية أنفسهن بسطوة نافذة لألسنتهن وردحهن، متحررات من ظل حوائط وأصنام الرجال. هؤلاء هن الحقيقيات اللاتي يتمثل فيهن التحدي الأكبر والإغراءُ الأقوى.

نورهان تعرف ذلك، وتعرف كيف تدله على إحداهن بنفسها، دون أن يشعر بأنها من تسوقه. هذا من صميم خبرات أعمالها الخاصة جدا الناجحة. من يأخذها نوَّار، يكون الأول في طريقها، فتضمن نورهان له ولنفسها أعلى نسبة من الأمان الصحي.. هذا مهم. بعد ذلك، تملك زمام من تسقط منهن تحت السَّيد، خاصة البنات منهن، واللاتي لم تعدن كذلك، وتكمل بهن الطريق، لتوسع شبكتها القوية.

(3)

منذ فترة، لا تحسبها جيدا، وتلك المرأة تشتري منها كل يوم بعض الخضرة، وتنصرف دون أن تأخذ باقي الورقة فئة العشرين جنيها. عجيب أمرها، فالطيب ليس هذا زمانه!.. انتبهت مع الوقت لتكرار حضورها، وحفظت وجهها رغم زحام الوجوه، وكبر تساؤلها عما تحتاج فيه كل تلك الكمية من بقدونس وفجل وكرات. تلك أشياء لا يأكلها كثيرًا من يلبسون كتلك المرأة، وهي تفكر أن (الحكاية فيها إنَّ). تضع الورقة في صدرها، لتكمل يومها، وتنتبه لحساب الزبائن. ومن حين لآخر، تنادي على عيدة، وتهش الصبية بعيدا عنها، وبالذات أخاها، المتشرب بالفساد في روحه مجبولا عليه كما تقول له كلما ضبطته مع عيدة.

حين يأوي إبراهيم إليها في مساءات عامه الدراسي، يستذكر دروسه بجوارها، يستدفئ بها، ويعلو صوته قليلا بما يستحفظ من المناهج، ترى فيه جانبا طيبا، لا تراه أبدا حين يأتي معها إلى السوق ويحاول جاهدا سحب عيدة تحت الجسر. تفكر أن هذا الجميل سيصبح شيخًا حين يكبر، ويؤم الناس في المساجد. إنه حصادها القادم من الأيام الضائعة. تلك الشهوة المسترزلة ربما اللوم الأكبر في فورانها لديه على عيدة وليس الولد.. إن تلك الفتاة الصغيرة تختفي طفولتها إذا مسها ذكر. ذلك جعل أمها تصرف نظرها تماما عن إلحاقها بالمدرسة، فهي إن ذهبت إليها لن تعود إلا بالمصيبة.

جريئة عيدة، ولا تكل أبدًا عندما تريد شيئا. ألمحت سميَّة عدة مرات للسيد أنها تستاء من أخذه لها للنوم بجانبه، فالبنت كبرت. لكنه لا يرد إلا بنظرة، يقلقها أن تكون كما حدسها، فكل ما بينهما ورقة عرفية، لا يكلفه شيئا أن ينقضها، فتكتفي بالتلميح كل فترة، ثم الصمت الطويل.

تنتبه من أفكارها فجأة على انقباض غير مبرر، فتتلفت باحثة بعينها عن عيدة، فتجدها جالسة تجدل بعض القش شاردة وحدها في مكانها المفضل تحت الجسر، مستورة، ولا أولاد حولها. أين إبراهيم؟ لا تراه منذ الكثير!

تعود للنداء على بضاعتها التي شارفت على النفاد، ثم يغلبها القلق، فتنادي عيدة لتحل محلها في جلستها، وتقوم للبحث عن ابنها.

عيدة، على صغرها، تجيد البيع ومعاملة الزبائن وكسب ودهم. كثيرًا ما تحصد بعض الجنيهات لنفسها عطيةً منهم لها فوق ثمن ما يشترون، ثم لا تخبر أمها عن ذلك وتشتري الحلوى في الخفاء، تنهيها وحدها. أحيانا تؤثر السيد بقطعة، وتثق أنه لن يفشي سرها. حين تجلس مكان أمها، تحل محلها أيضا في سماع حوارات طويلة لجارات من كل سن، تفضفضن بشكوى، أو تغتبن أخريات، أو تختلقن ما لا علمن أبدًا، لتجعلنه في عقول الرفيقات حقيقيا لا شك فيه. عيدة تسمع، وتفهم أو لا تفهم، ولكنها ترسم للدنيا صورة تحت قدميها تدهسها بقوة.

تعود سميَّة، وأذُن إبراهيم في يدها، وهو يقاوم أن يصرخ، ووجهه أكثر احمرارًا من البنجر في المشنَّة، والنساء تتصايحن عن العيب الكبير أن تفعل أم ذلك في رجل خط شاربه. لكن سميَّة تزجرهن أن ليس لهن شأن

بينها وبين ابنها، تلم فرشتها بما بها، وتضعها بقسوة على رأسه، وتجر الصغيرين من كتفيهما، كلأ في يد، وهي تسب وتلعن لا أحد.

لم تكن عيدة لترى ذلك ولا يغلبها الفضول. تفتعل التعثر، ثم تقوم ملتفة لتصبح بجوار أخيها، وتميل لتسأله عما حدث، فيهمس لها بنبرة المظلوم أنه لم يفعل شيئا، بل كان ينام على الرصيف عند شباك "نحمده". تضحك عيدة، فتزجرها أمها. تسرح في تخيل ما قد رآه أخوها من العروس الجديدة للمعلم مرزوق، فالشباك يكشف حجرة نوم "نحمده" في شقتها بالدور تحت الأرضي، والمرأة صارت منذ زمن متأقلمة تماما مع واقعها، فلم تعد تنهر من يطل عليها من نائمي الرصيف. لكن الأمر لم يعد مجرد جسد أبيض ينكشف عنه الغطاء.. إنهما رجل وامرأة. تلكز إبراهيم في غيظ، فيختل توازنه ويكاد يسقط المشنة من فوق رأسه، فيلكمها بقبضة يده، فتصرخ شاكية، بينما تلوذ سميَّة بباب الدار وسيطرة السَّيد على كل تلك الفوضى.

(4)

السَّيد نوَّار في إجازة اليوم. كما يقدس العمل ويعطيه حقه من المكر والمتابعة، يقدس الإجازة ويعطيها حقها من الابتهاج بكل أشكاله. ولأنه في إجازة، هو هنا وحده، يقضي يومه بفندق ذي نجوم سبعة، يسترخي في النادي الصحي، ويجلس بعض الوقت عند حمام السباحة، ينقل بصره بين الأجساد النسوية شبه العارية حوله.

وعدته نورِهان بقطة متوحشة جديدة منذ يومين، لذا فهو في انتظارها، لا تشغله تلك الأجساد أمامه. هو لا يمانع على الإطلاق تجارة زوجته الكبيرة، فهي -من وجهة نظره- من أكثر التجارات ذيوعا منذ ظهر البشر على الأرض. كل الدعوات التي خرجت من شرفاء التاريخ لم تقهر تلك التجارة، وأقصى ما استطاعه الحكَّام نفي وجودها وتغطيتها جيدا بعيدا عن العلن.

نورهان متقبلة لشرطه الوحيد، أنها لو افتضحت، فستصبح وقتها كأن لم تكن في حياته. لن يضحي بالأغلى من أجل زوجة بأي حال. في العموم أحوالها تطمئنه، فهي متمرسة ذكية، تعرف كيف تؤمِّن عملها وتربك أهم الشخصيات في البلد إن ألمح أحدهم، ولو مداعبا، إلى إمكانية إيذائها.

- مساء الخير سيِّد نوّار

التفت إلى ذلك الذي قاطع شروده، كان علاء أبو الليل، ذلك الصديق الإجباري. ليس من الممكن أن تكون كبيرا..سيِّدًا.. مالم يكن لك أصدقاء إجباريين. بعض رجال الأمن، القضاء، السياسيون.. لا بد من بعض الصداقات مع المنافسين أصحاب المال أيضا، فالعالم كله يتحرك من

خلال تكتلات كبيرة. ابتسم علاء، ذلك الصديق من فئة "الأمن"، واتخذ مجلسه دون دعوة على شيزلونج مجاور تحت نفس المظلة. وقبل أن يبدأ أي كلام ولو حتى للتحية، أشار له نوّار وقال محذرًا:

- أي كلام عن شغل ممنوع النهاردا

نظر إليه في قوة:

- حتى لو عن نورهان؟

ضحك عاليا:

- بالذات لو عن نورهان

مرت لحظة من الصمت بين زوجين من العيون المتحدية دون تصريح، ثم ضج علاء بالضحك، حتى التفت من حولهما إليهما في فضول. كأمر بديهي، لم يكن الآخرون يعنونهما بأي حال، فاسترخيا مجددا بسهولة، وشردا كلٌ في كأسه وخيالاته.

(5)

الساحة واسعة، والزخارف مبهرجة معقدة غير مريحة للعين، تصيب الناظر بقلق وضيق صدر وتشرّد تركيزه. أضواء متفرقة ضئيلة، ملونة بألوان كثيرة متنافرة، تجعل الأعين لا تميز حقيقة، ولا تعرف شكلًا للموجودات. سيدة ممشوقة، تجلس فاردة قوامها كملكة على ما يشبه عرشا أثريًا. لابد وأنه كان صفقة في خفاء عن أعين المسئولين؛ إن كانوا شرفاء، أو بتسهيل أيديهم إن كانوا كما العادة.

السيدة، أو الهانم، تركع أمامها جميلات، لم تعرفن الركوع حتى للذي خلقهن. في وجهها جبروت لا يُفهم مصدره.. ربما الملامح الجميلة إلى حد مخيف، ربما العينان فاتحتا اللون العسلي، الأقرب للاصفرار.. ربما ذلك الجمود، الذي لا يشي ذرة مما يجيش في ذلك الصدر، المكشوف أغلبه في جرأة، وقد تدلت ماسة سوداء بحجم البندقة، لتقف فوق الأخدود المقدس، الذي يستفز شبقهن.

أمام السيدة، ترتعش السيدات، تتعلق أعينهن بها وجلات، متربصات بشفتين ستنطقان ما لن يقال خارج هذا الجمع.. أمام السيدة ظلام كبير، واسع ويتسع، والأنوار الملونة تختفي، والنار تنطفئ، والانتظار فزع يأكل قلوب الجالسات، قبل أن ينتفضن وهي تنفث في النار من الرشاش العطر، فترتفع ألسنتها إلى سقف الغرفة البعيد، فتختنقن بالرائحة النفاذة، وتكتشفن بعدها أن قد نقصت منهن واحدة، فتعرفن أنها الخائنة، وتصفر وجوههن إذ تتخيلن مصيرها.

ليست المرة الأولى التي تختفي فيها إحداهن، ولم تعرفن يوما عمن تختفين شيئا، لا عن حياة، ولا عن موت. تتعلمن الدرس، وتلقين بالولاء قربانا تحت قدم الهانم، وتنغلق على رقابهن سلاسل العهر القاهرة.. تصرفهن بابتسامة بشعة، ثم تبدأ في استقبال زبوناتها المنتظرات بالخارج.

بالخارج، كأن كل هذا لم يكن. مكتب أنيق، وعيادة طبيب، وصالة واسعة، ونشاط لا غبار عليه. في حجرة الطبيب، ذلك الشاب ذي الوسامة والعينين المسحوبتين الواسعتين، مرضى يسألونه الشفاء، وهو لا يبخل عليهم بخبراته المحدودة، ويتفاءل كلما ازدحموا. مشكلته المؤرقة هي ما يرى من زحام انتظار أكبر كثيرا ممن يدخلون إليه. أولئك –من لا يدخلون- في الأغلب نساء نضرات تنضحن بالنعمة، وربما خاتم في إصبع إحداهن كفيل بتأمين مستقبل شاب في عمره. كثيرات منهن يخفين ملامحهن بنظارات شمسية رغم الليل، أو بأوشحة على رؤوسهن لا تناسب ما يلبسن على الإطلاق. بعض الرجال أيضا، كانوا يأتون ولا يدخلون إليه. أحدهم هو بالتأكيد رجل شهير، رآه مرات عديدة على الشاشات، ولم تفلح نظارته وكوفيته التي يغطس فيها حتى أنفه في إخفاء ألفة ملامحه. أبدًا ما كان ليقتنع أنهم مرافقو المرضى، كما تخبره السكرتيرة وتؤكده الهانم، نورهان، حين تدخل إليه بعد ذهاب الجميع.

سألها مرة عنهم، وهي خانعة بين يديه وقد أنهكها عشقا، فما كان إلا أن أفاقت من نشوتها، وتغير تَوقها المغيب بهوس الشبق إلى نظرة خبث شرير محذر له، ألا تقرب هذه المسألة فتكون من الهالكين. لا ينسى أبدًا تلك

اللحظة، وكأن عينيها اصفرتا وملامحها تجمدت، ونزعت عنها أستار الرقي، لتتحول إلى شرٍ خالصٍ بلا شائبة من رقة.

حينها، عرف حقيقة وضعه لديها.. ما كانت العيادة، والمال، والجنس هيامًا به.. هو تماما مثل تلك القلادة، التي تأبى خلعها، وإن انخلعت من كل ما عليها.. بل ربما تمسُّكها بماستها أقوى كثيرًا من تمسُّكها بعبدٍ جميل!.. مجرد عبد جميل.

وبحسبة بسيطة، عضدت اختيار الاستمرار معها، بكل شروطها، التي هي حقها المجرد، طرح مبدأ الاختيار بين الطريقين تحت بند الغباء البيّن. أنى لنفسه أن ترتضي وحدات الحكومة الصحية وراتبها ثانيةً، بعد أن عرف معنى أن يعيش. إن سيدته، على كل حال، تترك له حريته تماما، فيما عدا وقت تريده، فما من مبرر أن يتمرد على النعمة التي ما كان يحلم بها. هذا فضلا عن خياله اللامنتهي عن هول غضب السيدة، إن لمحت نية تمرد في طيات نفسه!

(6)

السَّيد كان، داخل منطقة من النبت البري، الشيطاني، يحيطها بسور من سلك بدائي، وقد سكن وحده في بيته الكبير، ذي الجدران الخضراء جميعها، والشباك المفتوح دائما، لا ينغلق أبدًا، سواء أدخل حرًا أو البرد والمطر أو حتى الغبار. وحده هناك، ولا أحد سواه يخطو فوق هذه العتبة.

هو سَّيدٌ "كان" هذه المرة.. كان لسنوات لم يعدها أهل القرية. كان عاليا، ثم انقضى.. نجمًا، ثم أفل.. سقط بعد أن أكل النمل المنسأة، والدود أكل اللحم.. ولكن ظل الشباك مفتوحًا، يدخل منه النور في الصباح، ويخرج منه النور في الليل.

لم يزل الطوّافون لا يتخطون العتبة، بل يضعون نذورهم عندها، ويهرولون بعيدًا ناظرين معجزة الذي مات، وبعث في الليل نورًا يخرج من شباكه المفتوح. بعضهم في اليوم التالي يأتون، فإن لم يجدوها خرُّوا راكعين فرحين بالمدد والقبول، وإن وجدوا قرابينهم لم تُمس بكوا ولطموا الخدود. بعضهم يكتفي بالأمل ولا يأتي، معتمدين على كرم فوق المعهود من البشر، فما جنوا من البشر إلا خيبة ألجأتهم للعتبة المباركة.

السَّيد - وإن مات - له كرامات. تأخرت كراماته حتى الأربعين، ثم إن تلك السيدة السوداء، كما يسمونها، أرسلتها السماء لتعتني بالطاهر. اللوحة ذات الإطار المذهَّب، على الحائط المواجه للشباك المفتوح، والتي تحمل شجرة نسب كما يسمعون ولا يدرون، هي كل ما يرونه من محتوى البيت. دائما تلمع، والتراب يستحي أن يحط عليها، هكذا يقولون. أتمسحه السيدة

السوداء أم لا، هذا لا يشكل تغييرًا في قناعتهم، فشجرة النسب الكريم إلى شيوخ الطرق الإيمانية الذين لا يفنون مثل أهل الضعف والارتكان، هي مما لا يجترئ عليها التراب.

والسيدة لا تأتي إلا ليلا، في نقابها، تخطو في صمت وهدوء، لا وقع لخطوتها، ولا تكلم أحدًا، وبيديها طفلان، ولد وفتاة. ويوم تأتي دون الولد، يعرفون أن سيموت أحد رجالهم. وكذا إن أتت دون الفتاة، ينظر كلٌ إلى امرأته ما بين مفزوعٍ ومتمنٍ، حسبما يحمله لها.

بقدر قدسيتها في قلوبهم، اعتبروها كالغراب، بنبوءاتها دائمة الشؤم. لكنها -ذات مرة- أتت والطفلين يلبسان الأبيض، وفي نفس الأسبوع خُطِبت عانس وعُقد قرانها. وقتها قالوا إن السيدة ليست شؤمًا، ولكنها فقط تعرف؛ كعادة الأولياء. فسَّر آخرون.. ربما هي مجرد خادمة الولي، السَّيد الذي مات، وهو من يخبرها.. الموت لا يمنع السادة من العلم أو من الحضور.

لكن البشرى لم تتكرر، وعادت تقبض قلوبهم أكثر مما تبشرها. هذا لم يكن سيئا، فسلطان الخوف أدوَم في الصدور من فرحة البشرى، فبقي سلطانها فوق قلوبهم يجثم في ثقة.

السَّيد، الذي نسي الناس اسمه وحفظوا لقبه، "أبو الحيطان"، واستخدموا شباكه المفتوح حين القسم "وشباك سيدي أبو الحيطان"، صار بعضًا من عفن يرْغي ويسرح حوله دود لزج. والسيدة السوداء، التي ما كانت سوى سميَّة، دلتها على المكان زبونتها مانحة العشرين جنيها، ذات يوم رأتها فيه تقسم قرص الطعمية بين طفليها. أنبأتها عن خير كثير، فحركها

أمل في حرية من لقمة يحسبها ويعدُّها عليها زوج لم يأتِ بها. باتت سميَّة تأتي بولديها متسللة في الليل لتأخذ النذور لمَّا اشتد بخل السَّيد، الذي لا يفتأ يزداد كلما ازداد عجزه، وازداد معه زهده فيها.

في أول مرة، جاءت وحدها، أخذت اللفائف من على الباب، وفرت تقسم ألا تعود.. وعادت. وفي كل عودة، كانت تأخذ من خير الأعتاب، وتقسم ألا تعود، وتعود. للشبع إغواء ودفع وإقدام.. وللتكرار قوة خلق للألفة، وإن كان مع القذى. وببعض الفضول أيضا، دخلت إلى الدار، وهي بالفعل تعرف مسبقا ما بداخله. دفنت "أبو الحيطان" بيديها، رغم ارتعاشهما. أتت بقفازات بلاستيكية من الصيدلية على أول الطريق كي لا تغوص بجلدها في لزوجة الموت. لملمت بقاياه في ملاءات المكان واحدة فوق أخرى، لتتقي رائحته البشعة.. نظفت ونثرت الفنيك، باغية الصحة وإبعاد ريح الموت.. ولكيلا يشمئز الصغار من طعام النذور، حين تأتي بهم. كانت تقول لنفسها إنها مرة من تقزز أكبر، أفضل من تقزز أقل ولكنه يصاحب صباحها ومساءها مع شلل زوجها السَّيد.

تلك الزبونة الأنيقة، التي لم تكن تحتاج ما تشتريه بعشرين جنيها كل يوم، وتنفعها بإصرار، دون ود من القلب، لم تخدعها في شيء. كانت ترى البرود جليًا في عينيها، وتنتظر في سخرية مُرَّة ثمنًا سوف تطلبه حتما، ولا مشكلة لدى ابنة السوق في ذلك، طالما لا يقترب من عفتها، فتلك تاجها الأشرف. حتى شرحت لها ما تريد، وبصراحة باردة قاسية أوضحت كل تاريخ الدار وصاحبها الذي انتهى.. انتهى هي الكلمة الأنسب. فرغم تحلله، بقت بقع الدم تخبرها أن ميتته لم تكن هيِّنة.

منذ انتقلت حياتها إلى الدار الخضراء، عرفت طريق عشرينات أخرى كثيرة، لا تستلزم الجلوس الطويل في السوق، ولا تقلقها على عيدة، ولا تعطي الفرصة لإبراهيم أن يختفي عن عينيها، ولا تضطرها للسيد، الذي، لو استمر هذا الخير، قد تطلب الطلاق منه؛ وإن كانت لا تعرف على وجه التحديد كيف يكون طلاق هذه الورقة العرفية. لم يعد الناس يضعون شيئا على عتبات الدار، بل قررت سمية تغييرا أصيلا، واشترت الشموع، والبخور، والبن الكثير والفناجين.. وسمعوا منها في ضوء النار ما لم يسمعوا من قبل.

اختلت سمية كثيرًا بالدار، فعلَّمتها الدار الكثير. عرفت أن تحت هذه الأرض كثيرين غير من ورثت الدار عنه. أغلبهم نساء، ورضَّع عظامهم قراقيش طريَّة، وهو ما لم تعرف سببه، ولم تجرؤ على السؤال عنه بعد. رأت في البن على جدران الفناجين رسمًا كالأفاعي يسعى ويحكي.. ورأت ما يسعى أيضا في غير الفناجين.

العجيب، الذي رسم على قلبها ابتسامة محبة لنفسها، أنها لم تخَف كثيرا، بل اكتشفت أنها أقوى مما عرفت عن نفسها دهرًا.

(7)

السَّيد نوَّار متعجل، وسيدته الرسمية تلاحظه في صمت، وتحسب خطواتها جيدًا. نوَّار يثق كثيرا في قوته وقدراته. لكن نورهان لا تؤمِّن ظهرها به أبدًا. فإن وقعت لن تجده هنا – هو من قالها صريحة منذ تعارفا- لذا فعلها بالتؤدة. فليس معنى الوضاعة أو الطمع أن إحداهن باتت طوع بنانها، وغدرهن يجيء في لحظة. والأسوأ ثرثرتهن لصاحبات يأتمنهن دون داعٍ، ما قد يضطرها أحيانا –ملتجئة لنوَّار- إلى إقصاء أصواتهن عن الحياة. ما المشكلة أن ينتظر نوَّار مزيدًا من الأيام، فوحدها تتحمل خسائر التسرع، بينما يجني المتعة الآمنة. فقط عليها أن تقف في تأنِّيها قبل خط الغضب.

ورغم نذالة نوَّار التي يعتز بها في هذا الأمر، إلا أن اقتران اسمها به يكفي لحمايتها من مشاكل صغيرة كثيرة، تضيّع الكثير من التركيز والوقت وترهق الأعصاب، بينما يحلها بأمر لرجاله دون صعوبة. المشاكل الكبيرة هي كفيلة بها، ولا تستهلك من وقتها كثيرًا، ولكن تلك الصغيرة التي لا تمل الحدوث هي ما تضيق به نفسا، فالوقت هو العمر، والعمر هو أغلى ما تثمِّن ولا ترتضي تضييعه.

كذلك، فإن تحرر نوَّار من الصلف الذكوري يكفل لها حرية تحيا بها. إنه يعلم بعلاقاتها، التي يستحيل استغناؤها عنها، متجاهلا لها في سلاسة ذكية، معتبرًا أنها جزء من عملها، ومغلبا المصالح المتبادلة، التي تنجح هي تماما في تعزيزها كلما توجست منه.

سميَّة إلى الآن تسير حذرة، ولا تسلم عقلها لنورهان تماما.. "بنت سوق". ونورهان أيضا بنت سوق آخر أكثر وعورة، ولها من طول النَفَس ما يؤهلها للصبر وحساب الخطوات. أضحت سميَّة مشكلة تتحدى نورهان من جهتين.. أولاهما كون المرأة نفسها متعبة في الإقناع، وترفض أي خطوة دون أن تفهمها جيدا.. لو حظت بالتعليم ربما أصبحت مصدر تهديد لمنافسي السياسة أو السوق أو كيفما اختارت من ساحات. من ناحية أخرى، فهيبتها في دار "أبو الحيطان" تغري نورهان أن تكلفها به، ذلك أنفع لها كثيرًا من منحها لنوَّار ثم تسخيرها في شبكتها، كما أنه احتمال أقرب إلى إمكانية إقناع سميَّة، فهي عفيفة إلى حد متعب.

الظروف مواتية للغاية لزرع السيدة/ الشيخة/ الأمل.. في قلوب أولئك المشتاقين للخلاص. أحوال البلد تخدم مصالح نورهان كأنما يتبسم لها الأفق. الفقراء كفروا بالمتعلمين وعلمهم، المظلومون يئسوا من التمرد على الظالمين، الشباب يكفر بالخير والأخلاق وربما الدين كله. تلك أشياء تراقبها جيدًا، وتخطط بناء عليها مصالحها ومشروعاتها بحساب لكل خطوة.

أبو الحيطان مات.. قتله جشعه ونسيانه حقيقة حجمه. حان الوقت ليحل أحد مكانه، فليس مكانه بالشيء الذي يمكنها التخلي عنه، حيث منبع مالٍ ومورد فتيات جدد. ترى كيف تعلق الناس هناك بسمية، وأحاطوها بوَهم تصديقهم وأساطيرهم. وهي أيضا تبدو مستمتعة بما تفعل، كما أنها أمينة في حساباتها معها لدرجة مذهلة. بقي فقط أن تملك شيئا يطوِّق رقبة تلك العنيدة، كي تقبل توريد الفتيات لها وعدم الوقوف عند الدجل والفنجان.

(8)

يالها من حياة تتقلب كيفما القلوب، وياللعند الذي يذوب؛ ليس مع الزمن أو الحاجة، وإنما بالاستزادة التي تغري بالقبول، فمن لم يذق الخمر كيف يدمنه؟!

السيدة الشيخة.. أصبحت الشيخة السوداء، بلبسها الأسود دوما.. حتى وجهها مغطى بشاش أسود تلمع من ورائه عيناها السوداوتان شديدتا الاتساع، يبرزهما أكثر خط ترسمه المكحلة، تخيفان الرجال بتلك النظرة، الخاوية والمخترقة، حتى لتثير التساؤل بينهم: أعمياء هي، وكيف إذًا تأتي وتذهب دون عون. والتساؤل مع الوقت ينقلب حقيقة مسلَّمًا بها، تثير تساؤلات أخرى، وتجلب ردودًا أخرى من قلب الوهم، وتزيد الشيخة سوادًا ورهبة، فيتصعَّد نفوذها في القرية، بسرعة تذهلها هي شخصيا.

مؤخرًا، يأتي معها ذلك القعيد، تجر هي كرسيه ذا العجلات، وأحيانا تغادر تاركة له وحده، غير مسموح له بإضاءة نور، غير مسموح له بدخول غرفتها، غير مسموح له بالإطلال على الخارج.. فقط يجلس بالصالة لاستقبال زوارها، الذين يتزايدون يومًا بعد يوم، حتى لقد أصبح الدخول إليها بحجز، وحجز مستعجل، وحجز خاص.. وكل له ثمن.

لم يعد السَّيد سيدًا، فسمية تراه الآن عبد جنيهاتها، وهي عليه السيدة تأمر فيطيع. أبناؤه بدءوا يتهامسون عن الميراث الشرعي، ووسوست ذممهم أخيرا أن لا حق لأحد أن يمنع سميَّة من نصابها في مال أبيهم.. كذب من قال إن الوازع لعلاقات البشر يخرج عن الجنس والمال والنفوذ. لكنها

ترفض أن تحيل زواجها لعقد حكومي. والرجل وأبناؤه لم يجرؤوا على الاعتراض.

...

إبراهيم، كان مترددا بين السعادة والحيرة مع التغيير. لقد انتقل لمدرسة قريبة منها، حيث الكل يهتم بابن السيدة، وهو ينتفش أكثر ك "ابن الناس المهمة"، وقد بدأت هرموناته تخط عليه سوادًا تحت أنفه، وكبرياءً -بلا سبب حقيقي- فوق أنفه. تلك السرعة التي تتغير بها حياته تزيد مراهقته إرهاقا، وتملأ نفسه تشوُّشًا. يتمرد كثيرًا.. يطاول أمه الكلام، وربما السوء أحيانا.. يقسو.. يطمح لرجولته على حسابها.. لكنها ما زالت تناديه ليجلس إلى جوارها وهو يحفظ القرآن، فتسمع وتبتسم.

...

أما عيدة، تلك الغريبة عن أمها ولا قريب منها سوى السَّيد، فقد سمحت لها أمها أخيرًا بالمدرسة مطمئنة، فمن ذا بعد يمكنه الاجتراء عليها وهي ابنة الشيخة. ربما اطمأنت للمكان والمكانة، أو ربما قررت ألا تدع عيدة تقترب من السَّيد أكثر.. أو ربما يطمئنها أن البنت نفسها أخذت طابعا أكثر غلظة، وقد أسندت ظهرها لصيت أمها، ولا تريد أن يمسك أحدهم عليها ذلة تنقص من تلك السطوة على البنات جميعهن، أو تهدد أمها في هيمنتها على الأرواح المحيطة.. الحية والميتة.

لا مكان للسذاجة إن ذُكِرَت عيدة.. لن يسحبها أحد إلى إغواء لا تفهمه. عيدة، التي قضت سنوات في السوق وتحت الجسر، فعلت ما أرادت

ولفظت ما كرهت، لا يقاس وعيها بتلاميذ المدرسة خريجي البيوت المقفلة.. لذا، فلا خوف عليها إلا مما تريد هي.

الآن، يزجرها عما تريد اعتقادها في قدرات أمها، وما تسمعه عن صِلتها بمن يمكنهم نقل ما لا تراه بنفسها عن ابنتها. تسمع عن ذلك ولا تفهم جيدًا، ولكن تربط الأمر بحكايات قديمة كان السَّيد يحاول أن يخيفها بها لتغوص في حضنه أكثر. وعموما، لم يكن الأمر سيئا تماما للصغيرة، أن تصبح شهوة التسلط على الفتيات بديلها المختار عن لهو الجسد.

...

جبّار هو السَّيد في أمله في الدنيا، لا ينقطع عن طلبها، ولا عن إعلان اشتهائه المُتع، وما يسميه "حقه" فيها. هو يعرف أين المصلحة فيخنع، لكنه يعرف أيضا كيف يأخذ متعته من حيث يريد. تساؤله الأهم، الذي يصر أن يحصل له على إجابة، وإن كان يتريث ولا يواجه، درءًا لغضب سيدته، التي كانت يوما لاجئة حقيرة ببيته، هو عن تلك الأنيقة (بنت الناس) التي تخلي لها سميَّة المكان ساعة مجيئها، وتنتظرها لتدخل عليها بلا استئذان. هذه وحدها - كما يحدس- هي من بيدها تمكينه من سميَّة ثانية.

تغالبه حقيقة أنه لم يتمكن منها يوما، ولم يكن سوى (صاحب البيت) الذي تسكنه. دائما هي تعمل لنفسها وعيالها، ولم تُذل تحت إبطه للقمتهم أو سترهم. هل فوَّت بخله عليه فرصة سيطرته اليوم على نشاطاتها؟.. أمست سميَّة كقبضة تغرس أظافر الكدر في لحمه كلما فكر في انفلاتها.. والأنيقة هي الوسيلة البادية الوحيدة لتطويقه معصمها من جديد.

(9)

وكأنه مشهد مختوم باسم هوليوود، في فيلم فانتازي أنفق عليه صانعه ملايين الدولارات، ليأتي بوجهين يليقان بحسن المكان، من يراهما من بعيد يحسدهما، رائعان، جمالا وابتساما.. ومن بعيد أيضا، يبدو الحوار بينهما متصلا، وألوان أطباق الإفطار مشهية، تعلو مائدة مزخرفة بألوان استوائية بهيجة، وكراسي البامبو تسمح للناظر برؤية جسديهما الإغريقيين المثاليين، وطلة الشرفة الواسعة على حديقة لا يحد أفقها إلا السماء.

أما من يقترب، فيرى السَّيد نوَّار يبتسم. ومن يعرفه جيدا، يدرك أن مصيبة في الطريق. دائما سعادته تعبر عن نفسها صاخبة مقهقهة. أما الابتسامة، فهي نذير يقبض صدر من كانت له. نورهان تأكل بشوكة صغيرة، قطعة من كعكة القرفة والزنجبيل التي تعشقها، وتعتقد أنها تزيد قوتها الجنسية. هي تؤمن بالعطارة والأعشاب إيمانها بأنها نورهان. تحاول الاستمتاع بها، بينما تراقب ابتسامته في توتر؛ ولكن كعادتها، لا تشي ملامحها بغير ما تريد إظهاره. تستمع بإنصات، وتحلل كلماته جيدًا، لتقدم ردًا حريصا عليه.

- على فكرة مش مصدقك

ترد بضحكة غنجة، قبل أن ترفع كأسها لتضم شفتيها الوردتين بلا طلاء حول قصبتين رفيعتين تمص العصير الطازج منهما. تتسع ابتسامته أكثر، وتقلقها أكثر، وهو ينظر إلى عمق عينيها، مؤكدًا دون كلام أنه يرى ذلك الفأر المتخبط في صدرها، والمسمى بالخوف!

- ما بحبش شكلك وانت بتشربي بالشاليمو

ترفع حاجبيها، محاولة إبداء تعجب ساخر، وإن أفلتت الحمرة من سيطرتها لتطغى على وجهها..

- وأنا مش بحب أشرب غير بالشاليمو

امتصت البقية القليلة من العصير، حتى كان صوت الهواء في نهايته، فضحكت. ثم أبعدت الكأس على المنضدة المستديرة أمامها، والتفتت لترسل عينيها إلى شجيرات الحديقة تحت الشرفة..

- أنت صح.. مش دي اللي وعدتك بيها.. التانية مش راضية

يسحب سيجارة من علبتها، ليمسكها بين إصبعيه، وهو يعرف أنه يستفزها بهذه الحركة. لكنها لا تلتفت إليه، فما يتكلمان فيه أكثر جدية من أن تقاطعه تلك التفاهات. استهانته بفكرها لا تزعجها الآن، فإن ظن أنه يضايقها هكذا، فليظل في ظنه، هذا أفضل من أن يبحث عما يزعجها حقًا..

- وبعدين؟

تتنهد وتشير بيديها أن لا حيلة تملكها، فيشعل السيجارة، ويأخذ دخانها في صدره بتركيز، ثم يقول:

- أنتِ غلطتِ مرتين يا نورهان.. مرة أنك وعدتِ بحاجة ماقدرتيش تنفذيها، ومرة أنك تعاملتِ معايا على أني هيتضحك عليّ بأي بديل

ابيضت شفتاها، ووضع هو السيجارة بينهما، وقال وهو يقوم من مكانه:

- لا ما تتخضيش.. بس حاولي تصلحي غلطتك

جذبت ذراعه تستبقيه..

- هي اللي ما رضيتش يا نوَّار، أنا حاولت. هاجيب لك غيرها وحاجة هتعجبك أكتر

فقط هز رأسه رافضا في برود، ثم تركها في الشرفة تختنق، رغم نسائم الخريف.

(10)

الهدوء، إلا من صفير صراصير الحقول. يوتر ذلك الرجل العاشق للضجيج، والخواء يمنعه أن يمضغ الوقت. فلا زائرة تتشنج منتظرة دورها، ولا رجل يهز ساقه وهو يلتحف بغطرة فلسطينية على أمل ألا يعرفه الموجودون، ولا حتى طفل سخيف لا يكف عن البكاء فينهره، وتخيفه أمه بأن هذا القعيد سيأكله إن لم يسكت. عينا السَّيد لا تفارقان اتجاههما منذ ساعة تقريبا، تكادان تحرقان المدخل ببحلقته غير المنقطعة، وقلبه يرف في غير انتظام، وعقله يموج بخطط ما أكثرها. اليوم، ألغت الشيخة كل الزيارات، وتجلس بالداخل منذ أتت بلا أي طلبات ولا حتى قهوتها الأثيرة. المعنى الوحيد لذلك أن ذات الأناقة ستحضر اليوم وهي في انتظارها. تلك الزائرة التي تملك وحدها أن تغيّر حدَّي المعادلة والأمل؛ وهو لن يعيش بغير أمل. يجب أن يحدثها هذه المرة، ويجب أن يستنفر مواهبه، التي اعتاد فرضها على القهوة والبيت، بقدرته على استمالة السامعين.

نظر في المرآة مرات عديدة يسوِّي شاربه الأشيب.. فتح عينيه الخضراوتين وشد جلده تحتهما، ممتعضا من تلك التجاعيد التي تخفيهما. لو كان يعلم بمجيئها، للبس الجلباب ذا الحواشي المذهبة، الذي أحضره ابنه من السعودية، ويحفظه مبخرًا معطرًا فوق رف دولابه الخشبي للمناسبات الهامة. ذلك الدولاب، هو الباقي عنده من جهاز أم عياله، بعد أن أخذ كل منهم قطعة إلى منزل زواجه، بحجة الذكرى، وبحقيقة الطمع أو الاستخسار في العروس الجديدة. ودولاب أم عياله لا يستخدمه سواه، فلم يسمح لسمية يوما بفتحه، أو بخزن هلاهيلها به.

فزع من شروده على صوت الباب الخارجي يصفق مغلقا، وإذا بالأنيقة تدخل مسرعة إلى سميَّة. وتغلق باب الغرفة أيضا، دون أن يبدو أنها لمحته. فار صدره بالغل والثورة لكبريائه. إنه هنا، السَّيد، كيف يكون وجوده كالصفر على يسار الحسبة؟.. عض على شفته، ثم حاول القفز إلى خطوة أهم، فحرك عجلات كرسيه مقتربا من الباب، ووضع أذنه عليه؛ ولكن كأن الداخل يحوي أمواتًا لا حس لهم: هذا الباب الغليظ قادر على حجب زار.

ما هي إلا دقائق لم تكفِ استكمال صراعات خياله، إلا وخرجت المرأة في عصبية. فاصطدمت به وهو من نسي نفسه أمام الباب في طريق خروجها. ما كان منها إلا أن تأففت، وضربته بحقيبتها الصغيرة كيفما جاءت يدها، فأصابت رأسه، وأكملت طريقها للخارج. أذهله أن تضربه امرأة، لكن لم تطل صدمته، فجعر يسبها بما أعانه لسانه من ألفاظ؛ وهي ليست بالهيِّنة.

توقفت نورهان عند عتبة الباب للحظة، ثم التفتت إليه.. ضاقت عيناها في تركيز، ثم عادت بخطواتها للداخل، وقد انكشف الغضب عن وجهها، وحلت مكانه ابتسامة باردة. ظنها عائدة لترضيته، فأعد لسانه لبعض اللباقة، لكنها تجاهلته للمرة الثالثة، ودخلت إلى سميَّة مرة أخرى مغلقة الباب بهدوء، وبقي هو في الخارج لا يفقه مما تفعله تلك المجنونة.

(11)

في مكتب نوَّار، وقد انتهى للتوِ نقاشٌ برودته كنصل سكين، وآثر الطرفان الصمت. رن جهاز (الإنتركم)، وأخبرت السكرتيرة عن رغبة علاء أبو الليل في الدخول إلى السَّيد في أمر هام. أشار إلى نورهان أن تخرج من الباب الآخر، ورد على سكرتيرته بأن تدعه يدخل، لكن كان علاء يفتح الباب، قبل أن تترك نورهان مكانها.

تكرهه نورهان.. صنف من الرجال لم تتفق معه إطلاقا، لا في العمل ولا في الفراش، لكنها رغم ذلك تشهد له بالكياسة والكرم. بادر بالصياح ضاحكا مرحبًا:

- اووووووووه نورهان ونوّار.. أنا اتزغللت من الأنوار كده

ضحكت بصوت عالٍ، وعادت تسترخي في مكانها، فلم يعد من الممكن أن تطيع زوجها وتخرج وقد دخل علاء بالفعل. اختار هو مكانه إلى جوارها وهو يقول مستظرفا:

- معلش يا سَّيد نوَّار أنا ليّ حق الصحوبية برضه في المدام

استقبل نوَّار تلميحه القذر بوجه لا يشي إلا عن ضحكة ودودة لابد أن يصدقها غريمه؛ مالم يكن هذا الغريم يلعب بنفس الحيل والقوانين. علاء لم يكن يومًا منافسًا نزيها أو حالمًا بالمثاليات وحسن والنوايا، ليغفل عن حجم رد الفعل لدى نوَّار، ولكنه مطمئن أنه لم يصل إلى الغضب الحقيقي لصاحبه. بالنسبة إليه، فقد قصد باستفزازه نورهان، التي تمثل له الإبهام

والقلق وغِلّ الثأر. منذ أنهت بقرارها هي لقاءات الفراش بينهما، رغم كرمه المشهود باعترافها، ووخز لا يبرح كبرياءه يجعله قلقًا. لا يدري أمغلول هو منها، أم من أن يخرج عن حكمةٍ لا يقبل السوق خروجه عنها. هي ليست من يمكنه الاستخفاف بها أو عقابها، حتى وإن تخلى عنها نوّار. كما أن نوّار يرفض استقبال أخبارها من فم علاء بالذات.

بحكم مركزه، فإن علاء يعرف الكثير عن الكثير، ويمتلك حقًّا في التدخل في أحوال الكثير. لكن مجالها عجيب، يخيفه بصفة شخصية. ويحبطه أكثر ما يكتشفه كل حين من سيطرتها على أقوياء، لم يتخيل أن يضعوا أنفسهم تحت ضرسها.

طال الصمت، والرجلان شاردان، ونورهان لا تعيرهما التفاتا، وتركز في النقر على شاشة هاتفها، ترد على بعض المراسلات في اهتمام، حتى سأل علاء فيما ظاهره الاعتذار، وكله الفضول:

- احم.. أنا قطعت حديث مهم وللا ايه؟

سبقت نورهان ترد في مرح، دون أن ترفع عينيها عن شاشة هاتفها، أو تتوقف عن نقرها:

- لأ خالص ازاي بقى.. بالعكس ده يمكن جيت في وقتك علشان احكمك بيننا..

ضحك نوّار ضحكة عالية مبتورة، واحمر وجه علاء، لا يدري أهي الساخرة، أم نوّار الذي يحذرها في باطن ضحكته السَقَريّة هذه. نظر إليها،

مستغلا انشغال نوَّار في إشعال عود بخور، هو من عشاق عبقه. رغم حساسية صدره. لاحظته هي، فابتسمت في لا مبالاة. واستمرت في عبثها للحظات، قبل أن تلقي الهاتف في حقيبتها، وتقوم فجأة، مودعة إياهما..

- سي يو بيبي.. فكر كويس ده شرطها وأنا خلصت محاولاتي خلاص، وإلا هاسيب لك الموضوع واتصرف انت

هذه المرة، لم يخف نوَّار غضبه، وهي تتعمد إفشاء طرفًا من الأمر أمام علاء، في تحدٍ لا يقبله ولم يتوقعه. لم يتوقع أيضًا رد فعل علاء، الذي أمسك يدها، يمنعها من الذهاب في تلطف، وهو يقول لها:

- لأ استني يا نوري أنا أصلا جاي للسيد نوَّار بخصوصك، وكويس أنك موجودة.

التفت إلى نوَّار، الذي كان في هذه اللحظة-يتمتم بشيء ما لا يسمعه أحد، ويحاول إرخاء قسماته، وأكمل:

- ده بعد إذنك طبعا يا باشا

ظل نوَّار في تمتمته، ينظر أمامه حيث لا شيء، ولا يرد على أيهما، بينما امتدت يد نورهان لتلتقط علبة سجائرها من حقيبتها في توتر، ثم تركتها متأففة، فنوّار يمنع التدخين عند وجوده في مكان مغلق. لاحظ علاء توترها، فكأنما نوع من الرضا جعله يتكئ بظهره إلى الأريكة، مستمتعا بإرهاق تفكيرها. نظرت إليه تهم بالسؤال، فرفع بإصبعه إلى شفتيه، مشيرًا إلى نوَّار، منتظرا أن ينتهي من صلاته، أو أيا كان ما يفعل.

(12)

قسوة صفاء الحزن يعرفها فقط مرضى الاكتئاب.. الحزن بلا منطقية للحزن.. الحزن الذي يعتصر القلب، وليس هناك أسباب يمكن علاجها.. الحزن، لأنه فقط الحزن من بين المشاعر ما تمكن من كيانك، وشل كل ما فيك عداه. سميَّة على وشك أن تكون منهم، كما تقول لنفسها، ولو أن طبيبا ناظرها لقال إنها على قائمتهم بالفعل منذ زمن.

من حق نفسها أن تتمرد على الصمود، وأن تخضع لكسر الحزن بعض الوقت. ما يحدث للمرأة البريَّة ليس هيِّنًا.. لطالما كانت تقف قوية وتواجه عصف الحياة، ولكن هذه المرة تشعر أنها سقطت في بئر غواية أكبر من أن تطمئن لقدرتها على الخروج منه حين تريد. اختفى السَّيد، وأغلق داره.. ولا تدري كيف، ولا تدري أين ذهب. هي مطمئنة أنه حيٌّ على الأقل.. قابلت أحد أبنائه منذ أيام في السوق، وقال لها في غلٍ إنه في حالٍ أفضل دون عيالها المقرفين، وأنه سيتزوج من أخرى قريبًا. وتعجبت للغيظ الذي عض قلبها، بدلا من أن تسخر من ادعاء زواجه من أساسه.

في السوق نعم قابلته، إنها تحن للذهاب هناك كل فترة، وتجلس تحت الكوبري مستسلمة للضجيج والهواء، مختفية في نقابها، يشدها فصال زبونة أريبة، أو أخرى معتمدة على إضجار البائع ليزيحها من أمامه بأي ثمن ترتضيه، إزاحة لبوز فقر يوقف الرزق والبركة. في السوق، حيث كانت ملكة عارية الوجه، يعرفها الناس سميَّة بائعة الجرجير الغلباء، التي لا يهزمها فصال، ولا يذلها حوج.. حرَّة كما حلا لها دومًا أن تصف نفسها.

يهاجمها ذلك الحزن، فتكاد تصرخ بالآهة. تتمالك نفسها، وتقوم من مكانها – في السوق أيضا هذه المرة-، لتمر على تلك السمراء المليحة التي أخذت مكانها القديم، لتبيع نفس بضاعتها، فتنفحها عشرين جنيها، وتلتقط بعض حُزم الخضرة، وورقة جريدة قديمة من الأرض تلفها فيها، وتنصرف دون انتظار الباقي، الذي تعبث البائعة الشابة في صرتها القماشية التي أخرجتها من عُبّها محاولة جمعه.

تخرج إلى الشارع الرئيسي تجر قدمين ثقيلتين، وتشير لميكروباص قادم، لحسن الحظ كان به أماكن خالية، فالساعة بين زحام الذروتين. تدفع لمكان راكبين، وتضع لفة الخضرة على المقعد بجوارها مرتكنة إلى الشباك، وتشرد مع الشجيرات المتسارعة، أو التي تسرع العربة في مرورها بها، أو التي تسرع الدنيا بهما معا وبها معهما. تحاول أن تهبط بعينيها إلى الأسفلت الذي تنهبه السيارة، فتشعر بالدوار، فتغمضهما، وتستسلم للمفاضلة بين حالين عليها الاختيار بينهما، غير واصلة لتحديد ما تريد.

تفتح عينيها فجأة، كأنما إنذار ما يوقظها من الشرود، فتصطدم في لحظتها بعيني السائق تراقبانها في مرآة السيارة الجانبية. تتلفت حولها، فتجد أنه لم يعد معها بالعربة سوى شيخ كبير في المقعد الخلفي. تلقائيا، تجذب كم عباءتها ليغطي سواريها الذهبيين، وتصيح به أن (على جنب ياسطى)، فيدوس كباحات السيارة بسرعة، تجعلها تندفع للأمام، فتهم بسبه، ولكن تعود فتخشى أن يعرفها أحدهم، وقد أصبحت قريبة من مركن العربات الذاهبة إلى القرية، حيث هي الشيخة السوداء، التي يجب ألا تكون في ذلك الموقف. تتعمد ترك لفافة الخضرة على المقعد، وتمد خطاها هاربة من مخاوف تدرك جيدا أنها لا تخيفها.

(13)

كطفل لم يكمل واجبات المدرسة جلس أمامها وهي تدخن بعصبية ولا تلتفت إليه. يراجع ما فعل لحظة بلحظة.. يراجع تجاوبها وإحساسه بنشوتها، التي هي واجبه الرسمي.. متأكد هو أنها حظت بما أرادت، وأنها تخلصت من كل ما جاءت به من طاقة كبت على وشك الانفجار. أيعقل أنها تحتاج المزيد؟.. هو على استعداد، وشبابه وفحولته يستطيعان، لكن ليس مع هذا الوجه العصبي غير الراضي ولم يزل جسداهما يتفصدان عرقًا.. ذلك كفيل بإحباط ثور.

لم تكن تستطيع أن تتخلص مما قال علاء، فقد أهانها عامدًا، وكان في يده ألا يفعل. إنه ينتقم منها لتركها له. فليأت وليرَ هذا الغلام وما يفعله بجسدها وبروحها كي يعرف حقيقته، أو فليذهب في خرَّارة. نوَّار شاركه في جرحها، فقد تركه ينضح بكل ما لديه، ولم يحاول ردعه. على الأقل هي زوجته، أي جزء من كرامته، وكل الاتفاقات بينهما لا تلغي ذلك.

التفتت إلى صاحبها بوجه مشمئز، كأنما تسقط عليه قرفها من رجلين استطاعا تهديد سلامها الداخلي بقوة. لقد فعل ما يجب عليه وأكثر، ولكنها هي المتأبية على الاسترخاء. رغم كل ما فيه من غيظ، اقترب منها يحاول مداعبتها، فأبعدت يده، وقالت دون أن تلتفت إليه:

- أنت شغلك عامل ايه؟

ابتسم في عدم فهم، ولكنه أجاب:

- زي الفل

التفتت إليه، وبملامح لا إحساس فيها قالت:

- ابتدي دور على عيادة علشان هاقفل دي خلاص

انقلب حاله من التلميذ الفاشل إلى طفل تاهت منه يد أمه في الزحام. لم يستطع أن يسأل لِمَ، ولم تتركه يفكر كثيرًا؛ قالت بلهجة زائفة الرقة:

- في قلق اليومين دول.. أنا هاعمل كده علشانك

لم يفهم، ولكن الأمر ليس بتلك العاطفية التي يمثلانها ويعلمان كلاهما أنهما يمثلانها. استجمع بعض التبجح، وما هو بتبجح وإنما حق يعتقده، وقال:

- بس هاجيب منين عيادة تانية وللا تعتقدي أني هاقدر ارجع لشغل الصحة ابو ملاليم؟

ضحكت، لأول مرة منذ حضورها اليوم.. رفعت إبهامها، وهي تقول بإعجاب وإثارة:

- برافو

قفزت فوقه كلبؤة هاجت فجأة.. أثارتها صراحته وطمعه الفج، فاستجاب جسده الفتيُّ مسخرا حواسه جميعها لهذه الجولة، التي استرخت بعدها منهكة في الفراش، وقام هو فاستحم وارتدى ملابسه وهو لم يزل على تشككه في انتهاء علاقته بكل هذا التدلل. لكنها لم تكن تهزل، ولا كانت لترجع عن قرارهي في الأصل مضطرة إليه.

قبل أن يمشي قالت له:

- افتح الخزنة اللي في الدولاب وخد اللي فيها حلال عليك

في برود فتح الخزانة، ومال يأخذ ما بها، وقد ارتفع حاجباه وارتاح صدره، بينما هي تتأمل جسده، وتقول وهي تضحك في خلاعة:

- تصدق هتوحشني

دون أن يلتفت إليها، كان يضع رِزم النقود في حقيبته، ويقول في نبرة موظف يؤدي التمام لرئيسه:

- مش هاغيررقم موبيلي

تنهدت وهزت رأسها بمعنى (ماعادش ينفع) ولكنه ما رأى ولا سأل عما عنت بتنهيدتها. ألقى نظرة على جسدها العاري لحظة، ثم انصرف دون تحية، فبصقت وراءه في عصبية، وقامت تبحث عن سجائرها.

بلوغ المدارك

(1)

في نفس البيت، وفوق مدفن "أبو الحيطان"، تم العقد. ابنا سميَّة جلسا مبتسمين، لا تفهم نورهان أفي بلاهة أم جشع، أم أنهما سعيدان حقا. هي المرة الأولى التي تراهما، ومنذ رأتهما وعيناها لا تفارقان الصبي المراهق، ولا الفتاة التي ورثت حسن أمها، وقوة نظرتها.

انصرف المأذون يرافقه الشاهدان، الذين وقَّعا -وهما في الصالة الخارجية- لا يعرفان على زواج مَن يشهدان. هما من رجال نورهان، فالسَّيد نوَّار لا يضع نفسه تحت ضرس أحد رجاله، أما نورهان فهو يمتلكها تماما، وكل ما تفعل إنما في حدود ما يرخي لها "أستِك" المسموحات.

كانت سميَّة تتمسك بحقها في ظهور فرحتها على وجهها في قوة. تجلس مقابل نوَّار تتأمله بغير اصطناع للحياء.. تلبس عباءة صفراء ناعمة، وتجمع شعرها ضفيرتين ملفوفتين حول رأسها، تعطيان وجهها استدارة حلوة، ووجهها بلا زينة سوى الكحل في عينيها، وبخدين وشفتين طبيعيين كورود تضئ طلَّتها.

كانت تلاحظ نورهان وإطالتها النظر لابنيها؛ تعرف أن لا أبناء لها رغم سنوات الزواج، ولا تقتنع بأن هذا ملء إرادتها وتخطيطها. تتمتم في سرها ببسم الله ورقية من عين كل من رآهما ولم يصل على النبي. يقاطع أفكارها ضحك نورهان المفتعل وجرّها الحديث..

- خافي من ضرتك يا سوسو

التفتا إليها - سميَّة ونوَار- فيما الطفلان قد ابتعدا وانشغلا بالحلوى، غير متابعين للحديث. قبل أن ينطق نوَّار ليوقف المرأة التي استُفزت داخل سيدة الأعمال المحنكة، سبقته سميَّة مبتسمة، ترفع حاجبها الأيسر..

- الضرة مرة يا ست نورا الله يعينك

ضحكت نورهان، وهزت رأسها نافية، وهي تلمح عيني نوَّار تزدادان التماعا.. تعرف أن تلك القوة تهيجه. لم تتصور أبدًا أن يرضى بعقد شرعي، بل وباشتراط من سميَّة أن يوثق في المحكمة قبل أن يدخل بها. لم تحب نورهان هذا الرجل يومًا، أو ربما لم تحب أي رجل؛ لكن تلك البائعة الحقيرة أثبتت الشطارة أكثر مما قدَّرتها بفدادين عدة. لها في هذه الزيجة سنوات أربع، دومًا كان فيها هو الأقوى منها.. قدمت له من دون غضاضة كثيرات من نساء أخذهن كـ(باشا) يخدمن رغباته دون أن يمنحهن حق الطمع أكثر. لكنها تراه مع سميَّة هذه المرة - وعجبًا- عروسين متكافئين رأسا برأس!

وضعت سميَّة كفها على ركبتها، منحنية للأمام، وبسحنة جادة قالت في صوتٍ هادئ، مقاطعة الصمت:

- اللي أنا فيه لكِ فيه فضل ما انكرش يا ست نورهان.. بس علشان تبقي على نور.. يا ست نور.. ومن غير كتر كلام، عايزة تلاعبيني، يبقى مش هتلاعبيني لوحدي.

التفتت إلى نوَّار مردفة..

- إلا هي الست ما تعرفش ان حبايبك عاليين قوي يا نوّار؟ وانا بقى باقول لك خد بالك انت ومراتك من حبايبي برضه

التفتت نورهان إلى نوّار متسائلة، بينما انقلب وجهه هو الآخر فاقدًا البشاشة التي احتوته منذ وقعا عقد الزيجة. قبل أن تنطق نورهان بكلمة، أسكتها بكفه مرفوعا، وسأل سميَّة مضيِّقا عينيه في تحدٍ:

- وانت تعرفي عني ايه يا سميَّة يا بنت امبارح؟

لم ترد.. نظرت في عينيه بتركيز في صمت، فلم تملك عيناه فرارًا من البحلقة في دوامات نظرتها، بدا كأنما يصارعها وهي الأثبت أمامه.. حتى انتفض شاهقا، فصرخت نورهان، وخرج صوت سميَّة هامسا:

- مش هتترقى يا نوَّار.. مش مكتوبالك

ارتعش.. خرج صوته مهتزًا فارتجفت نورهان في هلع.. سألها:

– عرفتِ منين؟

ابتسمت، لم ترد لبرهة.. ثم أطلقت زغرودة طويلة، ترددت تصفر طويلا على الجدران المتراقصة.

(2)

- ماما

- نعم يا عيدة

- احنا هنسيب البيت هنا ونروح عند جوزك الجديد؟

نظرت إليها في حيرة، وردت:

- مش عارفة يا عيدة.. هو البيت هنا ما ينفعش نعيش فيه، ده المفروض للشغل بس.. إلا أنتِ عاملة ايه في المدرسة؟

ضحكت النُمرودة..

- أنا هاشتغل معاك يا ماما ماليش في المدارس

جزعت سميَّة، وأمسكت بذراع ابنتها..

- تشتغلي ايه يا بت؟ أنتِ مالك ومال شغلانتي المهببة دي!

لأول مرة تلاحظ في عيني ابنتها أن تلك الخضرة ليست بلون الزرع البرئ، بل الصفرة تشقق اخضرارها، وتلعب داخل سواد بؤبؤها ككرات من لهب!. أفلتت ذراعها وسألتها مفجوعة:

- أنت تعرفي شغلانتي يا عيدة؟

ببساطة ردت وهي تحك أصابع قدمها:

- كنت باجيبهم لبابا وانتِ في السوق

- بابا!

- بابا السَّيد يعني

- يعني ايه بتجيبيهم له؟ هم مين؟

هزت كتفها، كأنما السؤال ساذج بما يكفي للتعجب، فنظرت إليها في ألم.. ربتت على رأسها وجذبتها إلى صدرها، كأنها تخفيها من السيِّد وأيامه السود.. همست إليها:

- يا ريتني أخدتك السوق يا عيدة

ردت البنت بضحكة مرحة، لم تفهم سميَّة معناها، لكنها بثت فيها طمأنينة أن هذه البنت قوية ابنة بطن قوية.

لم يكن من طبعها الندم ولا الحسرة الطويلة، عادت تتناسى شفقتها على ابنتها، وهي تسألها..

- كنتِ بتجيبيهم للسيد ليه؟ ولما هو بيعرف في السكة دي ما اشتغلش معايا ليه، دا....

احمر وجهها وهي تنتبه لما تقول لطفلتها، ضحكت عيدة ترفع عنها الحرج وترد في بساطة من تعلم الأمر برمته..

- ابويا كان يتجوز بس، ما يعرفش في عيشته غير كده. وإلا كان هيستناني أجيبهم له أنا ليه

همت بالرد، فمنعها صغر الفتاة.. يتزوج!.. لم يفلح مرة أن يريحها.. كانت على استعداد أن تستمتع ولو بإصبعه، لكنه كان غبيا لا يجيد لعبا ولا

عشقا، ولطالما عجبت فيما شبقه للنساء وهو لا يدري عن النساء شيئا. أي زواج هذا ترغبه بنت الجن أو بنت المجانين منه؟!.. لكزت الصغيرة، وهي تسألها:

- وأنت يا مسخوطة اللي كنتِ بتجيبهاله؟!

سكتت عيدة وأطرقت.. استعاد وجهها طفولة عمرها، وسقطت دمعة على فخذها. فوجئت سميَّة.. خافت أكثر من أي وقت مضى على ابنتها، وجذبتها إليها تضمها.. أتراها كانت تفتدي نفسها منه باستدعاء أهل النار له؟ أمر لا تستبعده سميَّة عن كليهما، فالبنت مَيوعة تتلكك اللمسة لتفرج ما بين ساقيها، وهو لن يمنع نفسه عِنها، فلا تظنه شعر يومًا بأنهم أسرته وأن لهم في عرفه عرضا أو مسئولية.

شردت منشغلة بصغيرتها، أتذهب بها لطبيبة تطمئنها، أم تنسى الأمر وقد انتهى، وذهب السَّيد وأيامه؟.. تفكر في نوَّار، سيدها الجديد، فتبتسم.. طول وعرض وجاذبية أكثر مما حلمت في عز صباها. ترى نفسها في عينيه أكثر قوة من نورهان، وتقسم أن هذا الملك خضع للفقيرة، وسيكون لها ما لم يكنه في عمره لامرأة. نورهان تساعدها على تملُّكه.. رغم بعض الغيرة التي تغلبها أحيانا، لكنها على كل حال ضرة لطيفة. تبتسم للخاطر، فكأن البسمة على شفتها تستفز الدنيا جميعها.. اقتربت عيدة بشفتها أكثر من أذن أمها، وهمست بصوت لم يكن أبدًا صوتها:

- نورهان لأ، خليكِ مع عشتار

(3)

"السيدة سميَّة".. تقولها، وتسترخي في كرسيها، وتبتسم مغمضة عينيها وهي تفكر في قدرة الأيام إن أرادت التغير على الناس. كم تغيرت وتشقلبت أيامها، وبعدما كانت من المرتضين السفح، إذا بها تجاور أهل القمم! هي، وهي فقط، السيدة الآن. ألولا أنها رضت بهم جميعا في مواقعهم، لظلوا؟!.. بل هو رضاها ومنحها المساحة لهم عن قدرة، وليس عن استسلام كما عاشت مع السيِّد في شلله وقذارته سنوات موهومة برضا المأوى. لم تعد الآن تستصغر نفسها أمامهم؛ هذا ليس الغرور، وإنما هو عدلٌ مع نفسها، وثقة أن رأسها سيعلو رؤوسهم يومًا.

سميَّة الآن بين عبيدها تُعبَد. يسجدون ويتمنون منها السماح لهم بلمسة لقدميها يلثمونها رهبة ورغبة. سميَّة تشترط على الجن ما أرادت من سحر لزبائنها، مقابل فقط أن تكشف عن ساقيها وهي تنظف الدار. كيف لنوَّار المتعبد لأولئك الذين يطمح إلى رضاهم أن يكبر أمامها.. كم يتدنى ويخسر مقامه وهيبته ورجولته حين يسترضيهم. حين مالت لرجولته وكادت ترجو نوَّار سيدًا لها، أدركوها وأبوا عليها أن يكون مثله لها حبيبا، فأطلعوها على أمره جميعه.

إلى الآن لم يدخل نوَّار بسميَّة.. لم يستطع حتى أن يقبِّلها، بعدما عرف أنه مكشوف أمامها. تركها تستقر في غرفة منفردة لم يدخلها قط. وهي من جانبها لم تحاول أن تشجعه. كفاها من خيبة السِّيد، ومن قبله هجر ابن عمها، أبي طفلها، إلى أرض أعادوه منها محمولا إليها، فقط ليكلفها القدر

بأن تبحث عن تكاليف دفنه، وهي التي ما أخذت من سفره قرشًا يطعمها. لم يحملوا الميت وقتذاك إلا إليها، وكأن شِق الحزن ملكيتها دونًا عن أهله، وهي بدورها احتفظت لنفسها بحق المعرفة بموته، ولم تعد لهم به. نوّار، زوجها الذي تشتاق، قال لها الجميل -وهو اسم على مسمى وأكثر من يغريها في عبيدها- إنه لن يستطيع الدخول بها لفترة قد تطول. ذلك لأنه مسلِّمٌ نفسه هذه الأيام للواط أسياده، على أمل الترقي. بصقت في الهواء، وتغير وجهها من ذلك الاسترخاء، الذي حُكم عليها ألا تذوقه إلا لمامًا، إلى الاشمئزاز التراثي من تلك الفعلة. كان من يُعرف عنه شذوذه في قريتها يعيش منبوذا، حتى من المجرمين والمدمنين بل والمجانين.

قال أيضا جميل لها إنها لن تكون أبدا لبني البشر، فجمالها فيه وهج النار وليس لزوب الطين. قال إن الطين يطفئ النار، ولو انطفأت نارها فسيموت عُبّادها قهرا وخَبوًا. عاد وجهها يسترخي وهي تتجسد شكل جميل.. أحمر العينين، أصفر الشعر، وردي البشرة، قليل الكلام، ساحر الرنا. إنه يعشقها، وتعلم أن نصف ما يقول هو من باب تزهيدها فيمن سواه. لا يستسلم أبدًا لاختلاف الأجناس والمواد، ويقول كله خلق وكله من بعضه. تبتسم.. ترتخي أكثر غائصة في الكرسي الوثير.. وتعض شفتها في إثارة.

سألتها عيدة غير ذات مرة أن تُزوِّجها.. قالت إن كبراءهم يشتهونها. عيدة اقتربت كثيرًا من جلسات أمها، ورأت جميل أكثر من مرة. كانت تراقب وتضحك، وأحيانا تطلق فكرة أو تعليقا وكأنها تربت ووعت تلعب من أولئك المتبخرين في جو الدار، وما أبدت منهم خشية يوما. أول سماعهم بنورهان

كان عن طريق عيدة؛ فسميَّة لم تذكرها أمامهم أبدًا. ربما خشيت أن يعرفوا أنها ليست صاحبة الدار، ولا هي أتت حقا كسحرٍ من جيب الشيخ "أبو الحيطان"، كما يتكلم الناس.. أو ربما خافت من غواية نورهان لهم، فيفقد حينئذ الميزان تكافؤ كفتيه. عرَّفتها عيدة وعرَّفتهم أن نورهان ما هي إلا مدعية؛ بل جعلتها تكتشف مالم تتخيل أن تسعه رأس الصغيرة، ولا رأسها عن تلك المرأة الواجهة. حينها قال جميل إنها لو كانت تريد التخلص من نورهان، فالأمر سهل. ولكنه عاد يطرق صامتا، فضحكت عيدة وقالت لسميَّة متجاهلة لوجوده إنه لن يتخلص من نورهان أبدا.. فابتسم جميل وأومأ موافقا.

وقتها، تساءلت سميَّة كثيرًا إن كانت الفتاة تحت سيطرتهم، أم هي المسيطرة. هل يلعبون بها ويستدرجونها؟ إنهم الجن المصور الحقيقيون بذواتهم، وقد خاف الناس من مجرد التشبيه بهم. لكن ثبات عيدة وفهمها السريع لهم، وإدراكها لكون جميل لا يتحرك إلا لمصلحة تمسه، طمأنها أن الصغيرة أكثر وعيا من أن تتركهم يحتلونها. إنها –ربما- أكثر وعيا من أمها، التي بدأ الخوف يحيك في صدرها وهي تقترب من إدمان علاقتها بهم، حتى باتت تخاف أن تخرج عن حدود سيطرتها.

فتحت عينيها، لتجد جميل أمامها.. انتفضت.. ليس هنا في بيت نوَّار، فحياتها مع نوَّار ملكها، ولن تسمح حتى لجني أن ينتهكها ويفسدها. دون أن تتكلم، وبالتقاء عيونهما لبرهة لم تطل، يفهم ويختفي وعلى وجهه ابتسامة آسية. تزفر في ضيق يسببه حنينها له أكثر من خوفها من حضوره، تسب نوَّار وامرأته، وتعود للتفكير في كلام عيدة عن الزواج..

سميَّة لا ترفض عرض عيدة، طالما كلمة "زواج" تعتلي المشهد.. لكنها تخاف أن تفقد السيطرة عليهم إن تزوجت منهم. حتى جميل هذا لم يزل يتودد، فقط لأنه لا ينال. قالت عيدة إن عشتار ستحميها.. حكت لها العجائب عن عشتار تلك.. أبهرتها بما تسمع، وانبهرت أكثر بأن تسمعه من عيدة الصغيرة. فكرت لبعض الوقت أن عيدة وعشتارها ظهر جيد يقوي مكانها.. ثم عادت تتحدى أي رضوخ لأيٍ كان.. رأت نفسها بمكانة المذكورة عشتار، لا تقل، فلِمَ تنزل إلى طي جناحها؛ إن كان لها وجودٌ أصلا في غير خيالات الطفلة؟!..

زفرت في قوة.. إن الأمر لم يعد لعبة، وهي بقدر ما تحرص الآن أن تعلو نوَّار، فلن تأمن جانبه أبدًا إن تمكن منها. في نفس الوقت هي لا تأمن لجميل ورفاقه، ولا لأن يساندوها إن تواجهوا مع شياطين نوَّار، ولا تستبعد أن يضجروا منها يوما، فتصبح مجرد بعض العفن اللزج يمرح فيه الدود، كما سبق ووجدت ولملمت "أبو الحيطان" أول ما جاءت إلى الدار الخضراء.

تتأوه بدمعة تكافح لأجل إيجادها، فيعاندها جفاف مقلتيها، فتستبدل راحة الدمع بتمتمة شفتيها "يا رب".

"يا رب". انتبهت معها إلى أن إبراهيم لم يعد يقرأ القرآن جالسا إلى جوارها؛ بل إن له شهورا يكاد يعتزلها، وبقاؤه في المسجد يطول يوما وراء يوم. لحيته المراهقة تضحكها، لكنه يعتز بها، ويرفض أن يحلقها ولو مرتين -كما تقول له- كي تستوي في مظهر الكبار. إنه "ربنا هداه".لم يعد يبحث

عن عيدة: رغم أنها قفشته مرات ملتصق العين بجسدها هي من ثقب باب الحجرة. عيدة تصر أن تغير رؤيتها لابنها وترميه بكل ما هو قبيح، وكأنها خلت من كل العلل فحق لها أن تنتقد إبراهيم. ظلومة عيدة.. تفكر سميَّة أنها تفتري على إبراهيم وتزدري ما هو فيه، عن غل وغيرة. لكنها بينها وبين نفسها تميل لكلامها أن تمثيلية التدين التي يدَّعيها لا تصدقها. إن عيدة تقول بجرأة إنها لا تواجهه بما فيه، لكونها اكتشفت أنها تحبذ ابتعاده عن السيدة؛ وليكن له المسجد، ولها المجد. تبتسم وترفع حاجبها إعجابا بالصبية، وتنتبه من أفكارها تنظر إلى الباب الذي يطرق.. زبون جديد، على ما يبدو، في طريقه إليها. تطرد عيدة من خاطرها بعبارة أخيرة:

– يا ويلي منك يا عيدة

ينفتح الباب، ويطل نوّار في "روب" أزرق حريري، لتكتشف سميَّة أنها شردت بعيدا، وأنها لم تزل بحجرتها في فيلا نوَّار، الذي بلا كلام يتركها، وينسحب للخلف ويغلق الباب وراءه!..

(4)

نورهان، لا خوف منها ولا عليها الآن.. مجرد لاعبة في دور بطولة مبهر بزعامة عصابة الدجل والدعارة هو ما تريد وترضى به. لم تظن أبدًا أن تصادف من تقلب اللعب إلى الجد، فلا تستطيع مساسها، بل وتخشى مكانتها. لولا أن رأت نوَّار ينهزم أمام عينيها ما صدقت ولا أكبرت تلك الـ "سمية". أول مرة ترى الانهزام مجسدا على وجه رمز التجبُّر.. انهزمت معه للحظات، فما تخيلت إلا أنها مسنودة إليه.. لكنها -عادتها دائما إن تعقدت اللعبة في مراحلها العليا- تعود لمراحل البدايات، وتهنأ بالفوز الأسهل.. (جيم أوفر) تعطي فرصة أكبر للاستمتاع بالحياة، بدلا من الشد مع صعوبات مرهقة. سريعا، وبعملية المحترفة، ما لبثت أن وجدت أن لا بأس في تغيير خططها، لتكون ساعدًا لسمية، وموردة الزبائن الأهم لها، فتستفيد من قدراتها الحقيقية. فلتكن سميَّة سيدتها، فهي -سمية- لا تبتغي القيادة، وتريد الظل. وفي الظل ينمو غموضها، وفي نفس الوقت تتقي شهرتها. ستقصر زبائنها على الفئة الأعلى والأخطر.. أولئك الذين يتخطون مكانة الآخرين بكثير.. وأولئك الذي قد يأتون في طائرات خاصة، من بلدان أخرى، فقط ليلقوا بأمورهم في قُفَّة سميَّة، ويدفعون بسخاء حق إمكانياتها التي لا يمتلكون. فليكن ما يدفعون - وهو عظيم- لسمية، ولتكن العلاقات -الأهم مما يدفعون- لنورهان. الموقف هكذا يمكن اعتباره نجاحا بتراضيهما معا، بشرط ألَّن يعرف أحد عن سميَّة شيئا، وتكون نورهان دوما الوسيطة بينها وبينهم، اسم السيدة السوداء محظور خفيٌّ عنهم، وطريقها نورهان وحدها من تعرفه. الآن هي على تماما الوئام

مع سيدتها، سمية.. وأما نوَّار، فسعادة شماتتها فيه تغلب كثيرًا بؤسها لفقد مساندته.

....

أما عن نوَّار، فقد انطفأ.. لم يفهم أحد من معارفه كيف تحول بريقه إلى ذلك الرماد الذي لوَّن وجهه ونفسه.. رغم ذلك، فعمله يسير جيدًا، وطاقمه كفيل بذلك، بقليل إشراف منه. أمسى يتجنب قدر الإمكان أي لقاءات مباشرة، وينهي الأمور بمكالمات هاتفية، معتذرًا بظرف صحي طارئ، مقبول من الجميع شاءوا أم كرهوا.

جاهد كثيرًا أن يفيق من كل ذلك، يرفض أن يرى نفسه محطمًا؛ وبلا مقابل.. يشتد ويخطط ويقرر ويعود... وكلما قابلت عيناه سميَّة، عاد للسقوط في إحباط آسن. كرِه كأشد ما كرِه أنه من ألح أن يصل إلى تلك المرأة.. فقط أسابيع قليلة، لو استطاع أن يلغيها من عمره، فيمحو ذلك التعلق، وذلك اللقاء، وتلك الهزيمة!..

سنوات منذ اختار طريقه، وهو يعرف أن المراتب متصاعدة.. يعرف أن ارتقاءه - أو سقوطه في أعراف المتخلفين تمسكًا بالأديان- ليس سهلًا.. هو عبدٌ لم يزل، بعد منحٍ طويل بذله، وهي في شهور قليلة تمكنت من عرش معبودة لا تركع.. تلك الجاهلة بائعة الجرجير!

أتدري تلك المجرمة، التي ما تعبت كما تعب، كيف وصل لرتبته، التي هي مرتبة عبد؟.. موهوبة!.. ما ذنبه أنه اشتاق ولم يحظ بموهبتها؟. هو جاهد لنيل ما اشتاقه، وهي لم تجاهد، فمن الأحق بالسيادة؟.. كم بنت مزق

بكارتها وأرسلها لنورهان ليصبح جسدها هو تجارتها ورزقها.. كم ابن له يربيه رجل لا يعلم عن عفة امرأته سوى ما يتمناه، لا ما يحققه.. كم جنين حملته النساء منه سفاحا، ثم خلصهن من الفضيحة ليقدمه حيًا قربانا للترقي!.. أكل ذلك وما زال عبدًا تحت عبيد، وهي التي لم تبذل من نفسها شيئا تبدأ طريقها منذ أول خطوة كمعبودة تذل مخلوقات النار تحت قدميها!.. لماذا؟!

فكرة قتلها تبرق في رأسه.. لم لا؟.. لا أحد يعرف عنها أي شيء، ولا سيسأل عنها إن اختفت مخلوق. حتى السَّيد، زوجها، باع لنورهان ورقة زواجهما ببضعة آلاف هزيلة، وباع داره وسافر ليتزوج في قريته، حيث لا تصل إليه ولا تصله أخبارها.

الفكرة تعجبه.. تشفِيه.. تنتقم لكرامته منها.. يترنم متفائلا، مرتجيا أن يكون القتل هو الإثم الأدعى للارتقاء الأسرع.. تبدأ الألفاظ المتعبدة على شفتيه محمومة.. يدور حول نفسه فرحًا.. يحاول التفكير في خطة تجعله يحصد لذته من جسدها الفائر، قبل أو بعد قتلها، لا يهم.

يتوقف فجأة عن جُل حلمه.. تصفعه حقيقة أنهم لها عابدون.. سينهشونه إن أدركوا ما يفكر فيه.. يتأكد من عجزه وغباء فكرته، فيقف مكانه مصدومًا!

(5)

- كنت في صحرا والدنيا ساكتة خالص..طلع قدامي فنجال كبيـــــر.. وعصاية صغيرة رفيعة قوي. كانت بتشاور لي على كل فتفوتة مرسومة بالبُن عالفنجال.. ماكانش في صوت، بس كأن الكلام واصل دماغي زي الحقنة.. مش بافهمه بس؛ أنا كمان باحفظه في ساعتها!.. صحيت.. وجريت في فنجان القهوة بتاع أبويا السَّيد، ولقتني شايفة حاجات سودا.."

ضحكت عيدة.. ولم تضحك سميَّة..كانت تستمع لها، يتنازع الزهو مع خوفها على صغيرتها.. اتكأت الرأس على كفها، وشردت مع الفتاة، تحاول العثور على بر آمن لها، فيجِير قلبُها جزِعًا، ويتراقص أبالستها مشجعين. إحساس الأزمة وضيق الصدر يغلبها.. زهو الإلهة ينكشف في قلبها أصفادًا سلمت نفسها إليها.. عيدة لم تزل تضحك وتتكلم، وسمية لم تعد تسمع.. حملت جسدها على قدميها صامتة، ودخلت مطبخها تعد فنجان القهوة..

فارت القهوة، وهي شاردة.. تتذكر يوم صحت عيدة تبكي، فأخذتها في حضنها، تسألها عما بها، فقالت إنه حلم مخيف.. ألحت عليها أن تحكيه لها، فرفضت، وهي بنت السنوات الست، مرتعبة من اجتراره. حينها سألتها: "هو لو طلبتِ من ربنا ان أنا أنسى الحلم ده، هيعمل كده؟"

انتبهت لرائحة الغاز توتر أنفها، فغضبت من لا أحد.. أخذت (الكنكة) فسكبت ما بها بالحوض، وفتحت الشباك، ثم عادت لِتلقم ملعقة بُن جديدة للماء، وتشعل النار.

هبت النار قليلا، من أثر الغاز المتسرب، فضحكت عيدة التي دخلت وراءها، فخضها صوتها.. بسملت وتنفثت في عبها، ثم نظرت إليها..

- عايزاكِ تشوفي لي الفنجال يا بت!

ابتسمت في خبث وأمالت رأسها..

– بتمتحنيني؟

حدجتها بنظرة تحذرها من التمادي في تعاملها رأسًا برأس، تجرعت قهوتها سريعا، وقلبت الفنجان بخبرة محترفة، ثم ناولته للصغيرة بيد ترتعش!

(6)

السَّيد نوَّار لم يعتز بأنه السَّيد إلا لثقة مستحقة أنه لسَّيدٌ رغم أنوف الكثيرين.. وسمية لابد أن تدخل ضمن الكثيرين. لها مدخلها الذي لم يعثر عليه بعد، ولكنه مصرٌ أن يفعل.. يرى في عينيها احتياج الزوجة؛ ذلك ملعبه، ولكن معها لن ينجح؛ يعرف ذلك ولن يغامر. نوَّار يبدأ تسيُّده مع النساء قبل الولوج إلى الفراش بكثير.. نشوة إذلال امرأة ذات بأس أمام عنجهيته هي ما تشده إلى أقصى عروش الذكورة؛ فإن لم تنهزم له سميَّة في الحياة، فهو أضعف من أن يأخذها لفراشه.

يزغلله التساؤل عن نورهان، التي ما وطئ جسدها أكثر من أي امرأة عاشرها، رغم سنوات زواجهما. شراهتها كريهة، وما هي إلا وسيلة بغاء، تستخدم القحباوات، ولا تتعلم منهن. لا يتخيل امرأة تصر على السطوة في الفراش، إلا غبية تُحرَم حقيقة الانتشاء. ربما يطلِّقها!.. أو ربما هي درجة سيدوسها قريبا ليرتقي النيران.

عاد بأفكاره إلى سميَّة، تلك الساحرة، التي أتى إليها السحر طوعا، وما طلبته.. تلك التاجرة بنت السوق، التي لم ترفض منحة الأبالسة، ورزق المهابيل.. تلك الأنثى.. المرأة، التي يملؤها شبق أن تكون امرأة.. ألا تتوق لرجل غيره متحججة بِنَأْيِه؟.. أيمكن أن تتكرر فيها نورهان؟.. هذا لو حدث يقتله!

"الوجع طريق أقرب لرضاي من لذة المعاصي"

ارتعش.. صرخ.. ارتمي في الأرض ساجدًا..

- سميَّة حاجة تانية.. بلاش سميَّة..

"حين يهون أقرب الناس إلى قلبك، لأجلي.. سأقترب بنفسي منك"

يبكي.. يبكي حتى النواح.. تسمعه نورهان، فتجري إلى حجرته، وتفتح الباب، فيصدمها انهياره. ينتبه إليها، فيهم بنهرها، فتطل سميَّة من ورائها.. ذاتها العين الكحيلة التي ملكته يوم قرانهما.. ذات المغناطيس غير القابل للمقاومة.. تلكن الجنيات المتلاعبات على أطراف ابتسامتها دائمة الوقار.. يحاول أن يكون أقوى.. أن يتغلب على سطوتها.. يقف.. يقترب منها.. يمد يديه حول رقبتها.. ولم تزل هي تبتسم!

.....

في ركن المسجد، بعد أن انتهت الصلاة وخلا من الناس، ظلت هنا عينان، ما زالتا تحملان بقايا طفولة ذهبت، دون أن تحل الرجولة مكانها، تتعلقان بوجه الشيخ السمح، وتسلمان قلب الفتى إبراهيم إلى قناعاتٍ لا يفهم أغلبها، وإن كان يقبلها، ويُقبِل عليها، ويزداد نفوزًا من حياته أكثر.

كافر من يتعلم السحر رغم تحذير هاروت.. كافر من ملك القدرة ففرّق وجمع، وعبث بالأفئدة، كما فتنة ماروت. كافرة أمه، حسب حكايات الشيخ؛ لولا رفقه بالغلام لقالها، لكنه يبلّغه ويدعه لإدراكه.. فيكرهها أكثر.

"رحيم أنت يا شيخي"

يقول الشيخ: "*وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ* بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا".. لكنه يقول كذلك: " قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"..

الثانية يكررها في كل خلوة لهما معا.. الثانية تقع في قلبه أقرب من الـ "مَعْرُوفًا". نظرة شيخه تدعوه إلى الصُح، دون أن ينطقه لسانه، أو يحرجه بتصريحه. يتساءل، ولا يجرؤ أن يسأل أيها تنسخ الأخرى!..

ثم يغيّر سؤاله بعد الحيرة، ساعيا "نفسي.. نفسي!".. من المسئول عنها أمام ربه؟!.. أذلك الزوج أم هو؟.. فلتذهب هي وزوجها إلى حيث أمثالهما،

لكن لينجُ هو بروحه من ذلك السحر، الكفر.. لم يعد يطيق في البيت حتى أكلته؛ يشتهي فقط فطيرة الشيخ.

- أنت يتيم يا إبراهيم، مش كده؟

- أيوة، بس أمي متجوزة

بهت الشيخ.. لم يتسرب خبر زواجها خارج تلك الحجرة التي عُقد فيها العقد، إلا على لسان إبراهيم الآن. الشيخ؛ الشاب، لم يضع في حساباته إلا ردع امرأة، سندها غلام كالعجين في يده. الأمر يختلف كثيرًا، إن دخل فيه زوجٌ لم يحسب حسابه.

- مين جوز امك ده يا إبراهيم؟ حد من البلد هنا؟

فتح فمه تلقائيا ليجيب، فأدركه تذكُّره السَّيد الثري وزوجته الهانم ذات الهيبة.. إن عينيهما ليس فيها تلطُّف الشيخ فكري ليرحماه إن أفشى ما قررا إسراره. هز رأسه، كمن يقول لا، فرمقه الشيخ بحنق، وواراه سريعا بتربيتة ملاطفة على ظهره..

- قوم يا إبراهيم معايا، أم حسن عازماك على فطير وعسل النهارده

يحب فطير أم حسن، ويحب أم حسن نفسها.. لو أنها أمه والشيخ أبوه لصفا صدره للحياة. إن جدران بيتهما سمِحة، تشع الارتياح.. صغيرتهما، ذات الضفيرتين، اللتين تظهر أطرافهما من أسفل خمارها الصغير تغريانه بعبث بريء، إذ تتقافزان وهي تجري إجابة لنداء أمها بالمطبخ، قبل أن تعود

لتناديه للدخول، حيث الـ "طبلية" جاهزة. ثم تسبقه، لتكون أول من يقرفص أمام الفطير مبتسمة للقادمين.

شتان ما بين حفصة وبين أخته عيدة، رغم أنهما نفس العمر، والمدرسة، وربما كانتا صديقتين في نفس الفصل. لكنه يرتاح لحفصة، يحب أن يسمع منها حديثا ساذجا تنقن طزاجته، يرهبه اقترابها إن ناولته شيئا غير منتبهة ولا متعمدة ملامسة يده، أو ربما تصطدم بصدره، الذي اعرَّض رغم نحافته ونبتت فيه بعض الشعرات، وهي تجري مندفعة في بيتها، فلا تراه في طريقها.. أما يكفي اختلافا كون حفصة لم تتعرَ لأحد تحت الكوبري!

......

- امي

التفتت إليه ساهمة، فأكمل..

- هو ابويا مات ازاي؟

انتبهت لسؤاله مستغربة..

- ليه؟ أهو مات زي الناس ما بتموت

- طب هو اتجوزك ازاي؟ عرفك منين يعني؟

ضحكت..

- في ايه يا ابراهيم..

مصمصت بشفتيها، وهزت رأسها، وأرسلت عينيها وعقلها بعيدًا..

- كنا جيران.. بيننا حتة مَنور مترين.. ابوك كان زي القمر يا ابراهيم.. عارف.. لو تاخد بالك من روحك وتهم كده وجتتك تتفرد. هتبقى زيه كده والبنات تعاكسك

ضحكت، ولكزته في كتفه..

- إلا البنات بتعاكسك يا ولا وللا معصعص ومش بيعبروك؟

ابتسم ولم يرد.. شرد قليلا، ثم هز رأسه قائلا:

- كملي يا امه احكي لي عن ابويا.. عارفة أني ما اوعاش عليه؟ وانتِ مش بتحكي عليه خالص

تنهدت..

- توعى عليه ازاي يابني وهو مات وانت ماكملتش 3 سنين.. قضا ربنا بقى ما حدش يعترض

نظر إليها.. فكر أن بعض كلماتها تشي بإيمان أقوى كثيرا مما يداخل قلبه وتترجمه لحيته النابتة.. نفض تلك الحيرة، التي لو غرق فيها لن يفيق. استدعى صورة حفصة، تخيلها في الشباك المجاور تبتسم له.. تلك المناور تلقي النسيم، وتلقي الحب أيضًا.. التفت إلى أمه يسألها محاولا الابتسام..

- ابويا كان بيحبك م الشباك بقى

ضحكت متفاجئة..

- والنبي خدتني من الهم يا ابراهيم.. في ايه يا واد؟ حب ايه اللي ماسك فيه ده من أول الكلام، انت ايه حكايتك.. انت بتحب يا شيخ ابراهيم وللا ايه؟

تصاعد الوهج إلى رأسه، وغضب.. لا يدري مم الغضب، لكن فورانه جعله يفز تاركًا إياها تتابعه بعينها، ويدها على صدرها، وأبتسامة حانية يكرهها على وجهها، وهو يبرطم حريصًا ألا تسمعه: "كافرة"!

(8)

- نوَّار بيه

فزع، وكان شاردًا في صلاته..

- بيه!

- كنت عايزة أقول لك حاجة

أخذ يتجول بعينيه فيها، متسائلا عما يمكن أن تريد قوله، ولم تنتظر سميَّة حتى يعطيها الإذن لتقول..

- أنا هاتجوز

ضاقت عيناه.. دارت أفكاره كالشهب في دماغه، مسرعة تحرق من تمر بهم.. تلك المرأة يجب أن تنتهي.. إن شيئا في حياته كلها لم يزعجه مثلها. مط شفتيه في ابتسامة صفراء، وتكلم من بين أسنانه..

- ده على أساس انك حرة؟

لم تستمر واقفة قرب الباب كما بدأت حديثها، وإنما خطت إلى حيث أول كرسي قابلته، وجلست فوقه القرفصاء، متكئة بصدغها على سبابتها وإبهامها..

- أمال انا متجوزة؟

تمنى أن يصفعها، أن يسقط جبروتها أرضًا.. لكن فكرة - أو وحي- همَّت في رأسه، فأجَّل أمنيته لحين يفكر فيها..

- انت شايفة انك مش متجوزة؟ يبقى بتستأذني ليه انك تتجوزي؟ روحي اتجوزي

نظرت إليه في تحدٍ، فهرب بعينيه منها.. قالت:

- توَّار بيه.. متجوزة دي يعني ليّ راجل.. تفِتُه في بؤِي.. بينام معايا.. ده حتى السَّيد -العاجز- كانت ضوافره المعفنة في -لا مؤاخذة- سوّتي.. انت بقى معلش يعني...

لم تكمل.. وجميلٌ أنها لم تكمل.. أشار لها أن كفى، وبحزم قال:

- خليني أفكر في الموضوع ونشوف مصلحتنا كلنا فين.

انتظرت قليلا تقلب الكلام في رأسها.. قالت في هدوء:

- طيب؛ بس شوف مصلحتنا كلنا مش مصلحتك. أنا ما آذيتكش في حاجة علشان تفكر في أذيتي.

ضحك منتفخا مستعيدًا نظرة السيِّد..

- خايفة يا سميَّة؟

فتحت فمها لترد، لكنها تراجعت.. لا بأس بتركه يسترد عافية كرامته، فأولئك السادة لهم في الصالح رؤى تتعدى خيالها. عادت تتردد.. ثم أخيرًا قالت:

- تفتكر ممكن أخاف منك ليه؟.. أنا خايفة مش هاقول لك لأ.. بس مش منك

قطب جبينه متسائلا، فقالت وصوتها يرتعش:

- أنا مش هاتجوز بني آدم

.....

- هي مين عشتاريا أبلة؟

مطت شفتها مصطنعة ابتسامة، وربتت على كتفها..

- حبيبتي احنا متفقين ما تسأليش كتير

لوت بوزها، وقالت مشوِّحة بذراعها..

- هو فين الكتير ده!.. دي أول مرة اسأل

فتحت عينيها عن آخرهما، ونظرت للفتاة نظرة، ذكَّرت الصبية بعيني أمها حين كانت تضبطها متلبسة مع أخيها تحت الكوبري.. ارتعدت عيدة، ولان صوتها، وهي تقول:

- مش عشان لو سألتني وللا حاجة!.. مانا لو اتقفشت هاخد علقة ماحدش هيحوشها عني يعني، دا إن ما طوحتنيش من الشباك!

تنهدت نورهان، أغمضت عينيها وعدت من 10 إلى 1 تنازليا في تركيز، حتى استرخت ملامحها قليلا. جذبت عيدة من ذراعها برفق، وأجلستها إلى جوارها على الأريكة، وكانت منذ أتت تحادثها واقفة كالتلميذة المذنبة. ابتسمت في عذوبة متقنة، وأخذت كف الصغيرة في يدها..

- بصي يا عيدة.. أنت ما تقوليش أي حاجة مش عارفاها.. اسكتي خالص لو سألتك أي سؤال أنا مش قايلالك رده. سهلة كده؟

مصمصت شفتيها تهكما، فاستطردت نورهان وقد بدأت عصبيتها، أو بعض غِلّها في الطفح:

- يا حبيبتي أمك ست جاهلة وغبية.. ما تزعليش، بس دي الحقيقة. أنت مش صغيرة، ومخك ذكي وبتفهمي، وإلا لو ماكنتيش أذكى منها ماكانتش هتصدقك في كل الفيلم ده ووافقت عالجواز كمان

- بس امي بتفهم كويس قوي على فكرة، أنت ماشفتهاش في السوق كانت عاملة ازاي.. دي كان تاكل اللي يقرب لها وللا لحد فينا

ابتسمت في غيظ..

- يا كتكوتة دي اسمها فتوَنة وللا جدعنة مالهاش دعوة بالفهم. بصي يا عيدة، دلوقت احنا اصحاب وفي بيننا سر.. لازم يفضل سر وإلا هتروحي انت وامك واخوكِ كمان في ستين ألف داهية. كفاية رغي واحكي لي كلمة كلمة قلت لها ايه على فنجانها..

نظرت عيدة قليلا في عيني نورهان، تستقرئ مدى الشر الغائص في عمقهما.. تلك المرأة مخيفة، فيها شيء شرير، رغم أنها وهمية، كما فهمت من مقارنتها بأمها.. أمها، التي تفعل تلك الأشياء مع العفاريت حقًا لا وهمًا، يظل في عينيها أمان وطِيب.

لم يغب عن نورهان القلق الثائر داخل هذا الصدر الناهج، والذي تفضحه القسمات المشدودة من التوتر.. لم يعد من جدوى لمزيد من الضغط، وإلا فسد الأمر كله.. أولئك الصغار يرهقونها أكثر من أغبى الكبار.. لا بأس، فلتعطها مقابل ما حصلت عليه، عساها تكمل ما أرادته منها.

- تعالي يا عيدة، أنت تستاهلي مكافأة

جذبتها إليها، قبلتها بقوة، وأخذتها إلى الفراش.

.....

في مكتب نوَّار، يجلس مسترخيا، سيدٌ كما ليس أحدٌ من السادة، وملف من بضع وريقات في يده يدرسه في اهتمام. طرق الباب، فتحته السكرتيرة.. ودخل علاء بوجه جاد، ودون تحية، قال متوترًا:

- مش هاعرف أخدمك فيها المرة دي يا نوَّار

- ايه اللي حصل؟

- الموضوع وسع ونورهان ملفها تخن قوي، ومش هينفع يتدارى، قل لها تلم نفسها شوية.

هز رأسه قالبا شفتيه..

- هي حرة

فاجأه الرد..

- حرة!

- أنا ماليش علاقة بالموضوع بتاعتها

هم بالتساؤل، فقاطعه نوّار:

- ده اتفاقنا من الأول أنا وهي.. يوم ما تقع أنا أوت (out)

- نوَّار، الموضوع مش سهل وأنت في السوق.. دجل ودعارة و..

قاطعه منتبها..

- دجل ودعارة بس.. مافيش تالت

هز علاء رأسه أن لا.. صمت، فسأله نوّار:

- في ايه غيرهم؟

مال إلى الأمام مقتربا برأسه هامسا:

- القضية أمن دولة يا نوَّار.. سيَّاح إسرائيليين وإيرانيين بييجوا لها مخصوص، هي اللي بتستضيفهم. من المطار عليها ومن عندها للمطار. مش هاعرف أخدمك خالص

ضاقت عيناه لحظات يفكر، ثم هز رأسه وقال في ازدراء:

- ما تخدمنيش

- نعم!

- مافيش مشكلة خالص، نورهان طالق

.....

(9)

الحكاية تبدأ الآن فقط. بذلك التصرف غير المحسوب يا نوَّار. تبدأ في طريق مختلف تماما عن كل ما فات. لم تعرف يا نوَّار النساء إلا رفيقات فراش مستضعفات تحت سطوتك؛ ولكن زوجتك ليست تلك البائسة. ترى ماذا ستفعل بي نورهان، فهي لن تنتقم منك في شخصك، فستحرص على شعرة الأمان بينها وبين جبروتك؟

يتسع خيالها لموبقات الدنيا السافلة جميعها.. يغص حلقها.. هل من الممكن أن... لو اقتربت من عيالي فلن يكفيني فيها قتلها وقتله، وليكن عاليها واطيها.

اختنقت بالقلق، فقررت الفرار من الهواء الثقيل هنا؛ في بيت نوَّار. لبست نقابها، ونزلت إلى الشارع، إلى الموقف، إلى السوق حيث حقيقتها الأجمل.. هنا كانت راحة قلبها بعيدا عن شلل السِّيد، وبلا لقب شيخة، ولا زيجة نوَّار، لتكون فقط سميَّة التي تحب، قبل أن تغتال نورهان صفاء نفسها وثقتها في الرحمة. هنا سمعت الغزل صريحًا ومستحيًا، واستمتعت به مدَّعية غير ذلك، وفهمت أنها جميلة لافتة تغار منها الرفيقات. هنا كانت تعيش، حتى قتلتها نورهان بسكين العشرين جنيها كلما أتت.

قرفصت على حافة الرصيف، أسفل الكوبري.. نظرت إلى كل تلك القاذورات وراءها.. كانا يعبثان هنا، ولطالما ضربتهما ولم يكفَّا. لم يعد أيهما يقترب من الآخر، فإبراهيم أخذه المسجد، وعيدة.. مالها عيدة تلك؟

صغيرة أم قرشانة ظلمتها الدنيا بالكِبَر قبل أوانها؟ ترى أأخذتها المدرسة أم أخذها الجن؟.. فيها ما يملأ قلب أمها قلقًا، والآن أكثر من كل ما قبل.

مسألة الفنجان، والجن، وتزويجها.. رفضها الذهاب للمدرسة.. حبها لنورهان ومصاحبتها لها.. كل ذلك يحاصرها، حتى عجزت عن استبصار الحقيقة. هل نورهان من أقنعتها أو قدمتها للجن؟ نورهان دجالة لم تعرفهم، وربما لو رأتهم مرة لفطست.. وعيدة.. بنت فاسدة نعم، ولكن بجسدها فقط، فروحها طفلة جدًا. ثم لماذا الآن تحكي أشياء تقول إنها قديمة؟ فلا حدث من قبل أن أشارت لحلم، ولا لتزويج السَّيد، ولا أي من تلك الخرافات. هل يقنع سميَّة أن السَّيد كان يعرف تلك المخلوقات ويتزوج منها ما تستجلبه عيدة؟ فلمَ إذن كان موقعه على كرسيه بالصالة، دون تدخل في دجلها، قبل أن يختفي؟!

وجلت.. هل زوجت عيدة نفسها من أحدهم؟ إنها الآن تنفر من إبراهيم تماما، بل لا تطيق وجودهما في مكان واحد.. أزهدت في إبراهيم وعيًا واستبدالا بالمال والعز، أم استبدالا بأمثال جميل من المتمحلسين؟.. أكاذبة عيدة أم مظلومة أم ظالمة؟.. هل ظلمت هي الجميع يوم قبلت معرفة نورهان وأغرتها الدنيا، أم أنها هي المظلومة من اختيارات الجميع؟!

تنهدت، تريد أن تصرخ لا أن تكتفي بتنهيدٍ.. حظها عجيب عجب الحزن: فزوج يموت، وزوج قعيد، وزوج ليس زوجًا، ثم أخيرًا تجئ لها ابنتها بخاطب من لهب!

"ربنا ياخدك يا نوَّار انت ونورهان، جتكم سم يهري بدنك انت وهي واليوم اللي عرفتكم فيه"

قامت من مكانها، أخذت حزمتي جرجير، وناولت المليحة ورقة من فئة العشرين جنيها، وتلقائيا سألتها، كما لو أنها أعدت السؤال أو أتت إلى السوق في الأساس لتسأله..

- حزمتين جرجير يا.. ألا انتِ اسمك ايه؟

نظرت المرأة إليها مضيِّقة عينيها، تستدعي الشبه من ذاكرتها، فتركتها سميَّة، دون أن تنتظر الباقي، الذي لم تحاول الشابة أن تخرجه، بل دفست الورقة ذات العشرين في صدرها، وهي تتباعها مصرة على تذكُّرها!

.....

مطلقة!.. في السيارة، تجلس في الخلف، والسائق يتابعها في المرآة، ويلاحظ عينيها المنتفختين لم يسترهما التزين والألوان. ليس هذا وقت الانتقام من السَّيد نوَّار، فهناك أولويات تسبقه كثيرًا.. هي لن تعجز عن تأمين حياتها بدونه، فمصالح الكثيرين تحت ضرسها، لكن مساندته تضعها في حيز العليين.

تتنهد، ثم تجز أسنانها.. لن تواجه هذا الشيطان وحدها؛ بل لن تواجهه هي على الإطلاق. هناك من لابد أن تحركهم ليعيدوا إليها كنزها الذَّكري، الذي لطالما توافقت معه وأراحا بعضهما بعضا، وانسجما على خطوط نوتة حياتية، رسما لها مفتاح صول الابتداء بابتسامة اللا انحشار في أمور

الآخر. لن يكون له نصيب في راحة مع سواها، كما ليس لها إلا حياته وزيجته. يجب أن يعيدوه إلى شراكتها، ودون أن تهين نفسها. الآن، يجب أن تشتري دماغ سميَّة إلى جانبها.. رغم أن الفرصة تشع أمام تلك الزاهية للاستئثار بالزوج والمال والنفوذ. خاصة أنه - في ظنها- موله بسمية كما لم يفعل في عمره؛ إلا أنه لابد من سبيل تستميلها به. هناك شيء ما.. سميَّة لا تحب نوَّار، وهذه بداية جيدة.. هي امرأة في داخلها عادية، يهمها الرجل والسكينة أكثر من كل ما يمكن أن تحققه من نفوذ لو انتبهت لما هي مقبلة عليه.

تنهدت مرتاحة.. لن يكون الأمر صعبًا لدرجة الاستحالة. وفقط يحتاج رسم خريطة تحرُّك داخل صدر تلك الساحرة الساذجة. تلفتت بعينيها، وقد أشرقتا أخيرًا، إلى الدنيا حولها، وتلك الوجوه المندسة داخل أعناق الملابس، والبخار يخرج مع أنفاسهم، فكأنما حشروا الـ (جوزة) داخل ملابسهم، لينفثوها في صقيع الشارع.

ضحكت.. أخيرًا ضحكت بعد قهر طال على قصره.. وفيما تسترخي على ظهر المقعد، لمحت عيناه تأكلانها في المرآة الأمامية.

(10)

ثم؟!

لن تستمر الحياة وكأنني مشنة جرجير يحملها كل منهما بعض الوقت، يلوك حزماتها، وقد يبصقها كارها لذعتها. طلقها ويحبني، وكل هذا العزلن تتاح فرصة لي فيه أفضل من وقت هو فيه بلا امرأة. والرجاء مع كل ذلك أراه، إذ أطل في عينيه، بعيد.

- ايه يا ملكة شاردة فين؟

خضتها لمسة عيدة وصوتها، فضحكت الصغيرة..

- ايه ياامه؛ الناس بتتخض خايفة من العفاريت، انت تتخضي ليه بقى؟!

ابتسمت.. ذكية عيدة ولها ألف حق.. لكنها لا تفهم شيئا، وتظن أمها ملكة. إنهم أوطى من البشر، مهما غرُّوك بالمكانة فالمقابل لابد من دفعه.. مسكينة أنت يا عيدة، لم تضمك عائلة يومًا، وتكبرين على الشتات في السكن والقلب والناس، وحتى تعليمك!

– أخبار المدرسة معاكِ ايه يا عيدة

ترد بحماس جديد عليها:

– حلوة المدرسة يا ام إبراهيم.. حلوة بصحيح، بس انا مش شاطرة يعني

ترفع سميَّة حاجبيها وتبتسم، فتستطرد عيدة:

- هو انا كويسة، بس على قد مانا عايزة يعني.. ما باحبش المذاكرة الكتير اصلي (تغمز بعينها) مانيش زي إبراهيم حفِيظة؛ هو أشطر مني

تضحك أمها..

- يا بت مالك ومال إبراهيم؟ يا بت إبراهيم ده أخوكِ الكبير اللي تصاحبيه وتراضيه كده وتتسندي عليه.. إبراهيم ده.....

تقاطعها في عناد صلب:

- أنا مش هاتسند على حد في عمري.. انا باعرف اقف لوحدي من غير إبراهيم على فكرة

تبتسم سميَّة.. لك كل الحق يا عيدة، فمن ذا ارتكنت إليه أمك في ثلاثة رجال كتبها النصيب في ذمتهم؟ لا أحد!.. لولا أن حملها ظهرها، لحملها التراب بعثرات كرامة لا تجد من يغرسها، في حياة تروي الكرامة دمًا.

....

إلى لَبِنات الحائط ألجأ، مُلصقا فقرات ظهري، التي لا يغطيها سوى جلد جاف متشقق. أدقق في قشور صفراء مشوهة متشققة بأسفل الجدار إلى جواري، تنبعث منها رائحة رطبة تمزق صدري، الذي أدمن أزمات الربو وبخاخات الكورتيزون. أسمع صفيرا، لا أدري أمن أزمة صدري، أم من الباب الصدئ يفتحه أحدهم. أترقب صامتا، لأكتشف أيُّنا يزعجني.. ينفتح الباب، فتنفتح شفتاي.. تظهر أسناني المسوسة، ويظهر ذلك الشيء عند الباب.. إنه السيِّد!

يستيقظ شاهقا، فزعا، ليجد الظلام محوّطه. يمد يده إلى زر الـ (أباجوره) ليضيء ذلك النور الناعس، الذي لم يطمئنه، بل بعث في خيالاته اللهب. السيِّد ليس راضيا، وليس زائرًا.. السيِّد مستهزئ بائع له، لا رويّة في غضبه.. السيِّد قبيـح جدا!

ارتفع صوته..

- سميَّة!

كررها مناديا في هيستيريا، لتفتح الباب مذهولة وتدخل إليه.. تجده لاهثا متعرقا حد البلل، وكأنما الحمى قد تمكنت منه فكادت تقتله. لأول مرة ترى عينيه راجيتين.. تمسك برأسه، وهو - كطفل صغير- يدفس رأسه في صدرها. تهم بسؤاله، لكن يطرق الباب، وتدخل تلك الشقراء، المسماة مديرة المنزل، أو حسبما تسميها هي رئيسة الخدّامين، فتأمرها في الحال بالذهاب. يحمر وجه المرأة، لكنها لا تملك إلا الطاعة، إذ ترى سيدها مستسلما لـ... لم يعد من بد أن تعترف أن تلك الشحاذة هي سيدتها الجديدة، وأن سياسة جديدة لابد أن تستقر بينهما. تنسحب وهي تومئ برأسها، وتغلق الباب، وتشد سميَّة ذراعيها تضم المرتعش أكثر.

سميَّة لا تحب چيچي؛ وإن كانت لا تكرهها أيضا. ذلك الشعور المحايد متعب لها، وباعث لحالة من الترقب القلق تكرهها. منذ أتت إلى هذا البيت تتوجس منها أكثر من نورهان، فالأخيرة ليست إلا باحثة عن مصلحة تافهة امتلكت مقاليدها بصنعتها، فما عاد أمامهما إلا أن تتعاونا، مهما بلغت الدخائل من غليان. چيچي ليست كما نورهان، فمصلحتها لم تزل بعيدة

عن إدراك سميَّة، لا يقنعها أنها هنا لمجرد أن تكون خادمة. مظهرها وأسلوبها لا ينبئانها بفقر واحتياج لعمل، مهما ادعت فيه، لا يخرج عن إطار الخدمة في بيوت الناس. والتي أبت هي أن تمتهنها في أشد أوقاتها تعسرًا.

تطردها من تفكيرها باستماتة. إنها أمام فرصة عجيبة، لن تُعطَى مثلها ثانية بسهولة. نوَّار يبدو لها منهارًا كما لم تتخيل أن تراه أبدًا وهو من هو.. نوَّار -السيِّد- يناديها مستغيثا محتاجا إليها بكل شكل!

.....

لأول مرة يفعلها منذ عرف الشيخ.. يغلبه شعور الخزي، الفشل، هباء المجهود الماضي كله.. إحساس الخائن يتضخم في قلبه الصغير، إذ فعلها مع خيال حفصة. يتلفت، يريد الوحدة، فربما بكى.. لكن عيدة هناك نائمة في طرف الحجرة. لو أنه فعلها مع عيدة، حقا وليس حلما، ما لام نفسه هكذا، فهي قذرة تجرجره، وسيكون الأمر كله وزرها هي. أمه كذلك كافرة، لن يتحرج منها. لكن الشيخ!.. الحق والدين والطريق لربه! وحفصة العذراء، الأطهر من وليدا.. إنها الكبائر التي يحكي الشيخ عنها.

تفل على يساره ثلاثا.. هكذا يقول شيخه، إن رأى أحد ما يحزنه. فقام مفزوعا. قرأ الآيات الحافظات وأذكار التعوُّذ. رمى جثته على الفراش على جانبه الأيمن. تراوده الصور إذ يغمض عينه، والفتاة مليحة تغريه بإطفاء ضميره.. وعيدة تتقلب في فراشها.. لماذا تتقلب الآن؟!.. تتعرى من الغطاء وهو يتابعها.. يكتشف أن بروزين قد نبتا في جسدها يزيدانها إلحاحا على

شهوته. عيدة كانت دومًا حرثه، يأتيه أنى شاء.. أمة.. عيدة ليست إلا أمة، ولا حرج على الحر في الإماء.. يردد لنفسه، يخدر ضميره الحزين لأجل حفصة، يطرد التردد، ويتسلل بخطوات بائسة، وشهوة منتصبة، ووجه كله الإصرار.

فوجئ برفستها له، كإتان حرنت واشتد غضبها ولا يهمها كيف تصيب صاحبها!.. قامت تنظر له بغلٍ جعله يتكأكأ إلى فراشه وهو يقول لها في صوت خفيض، يحاول أن يخفي وجع جُبنِه فيه:

- كافرة!.. انت كافرة زي أمك يا بت؟.. عنيكِ فيها ألف شيطان، أعوذ بالله منك!

التفتت إلى جوارها تبحث عن شيء ما، فما وجدت غير زجاجة دواء الكحة، فلم تتردد في تناولها وقذفه بها، لتضربه حافة الزجاجة أعلى جبهته.

- يا شيخ شيطان اما يلبسك، دا انت الشيطان يفر منك ويقول على روحه برئ. لك عين؟ طب لو لك عين معايا، كمان لك عين تستعيذ بربنا؟ كتك القرف نجس.

أذهله لسانها.. لم تكن هذه عيدة، التي تستمع وتضحك وتبدو حاملة لمسئولية حفظ حقوق الغباء في التواجد. محقة هي، يعلم ذلك.. لكن ليس الحق في أغلب الأحوال شفيعا. قام إليها فجذبها من شعرها المطلوق على أعنته، فأوقعها أرضا، وهي تصرخ مستنجدة وتضرب ما تطال منه. قبل أن يصل صوتها إلى أمها، وجدا أمامهما چيچي، وساعداها معقودان

على صدرها، وشفتاها تلتويان امتعاضًا. رأت البلل على جلبابه في تلك المنطقة، فخمنت ما وراء الخناقة. فزجرت إبراهيم بنظرة حادة، جعلته يفتح فمه ويغلقه، عاجزًا عن مكاوحتها. التفتت إلى عيدة، ووجهت كلامها إليها:

- اتفضلي قدامي هتتنقلي أوضة نورهان اهي فضيت، يللا زي ما انت وبكرة هانقل لك حاجاتك من هنا.

همت بالاعتراض انفعالا، لكنها عادت لرشدها، الذي لم تبلغه سنواتها، فابتسمت.. خناقة رابحة إذًا، لم يصبها فيها الكثير، والمقابل حجرة نورهان، التي طالما حوتها مستضعفة تحت إمرة سيدة البيت. ذلك الفراش الكبير، الذي ضمهما في نشوة انتقصها إحساس الخادمة المؤتمرة بأمر نورهان حتى في التخطيط ضد سميَّة، أمها، والوحيدة التي تحبها في هذه الحياة.

تركا إبراهيم في غيظه، وتعامت چيچي عن بصقته وراءهما، وفتحت لها الغرفة، وأضاءت نورًا خافتا. جلست إلى جوارها على حافة الفراش، تغطيها وتسألها:

- تحبي أحكي لك حدوتة لحد ما تنامي

ابتسمت عيدة مستهينة بالفكرة، فداعبت چيچي رأسها الصغير، وأضافت:

- أنت طفلة يا عيدة.. عيشي طفولتك وما تكبريش نفسك وانسي اللي فات. هتندمي لو طفولتك فاتتك

انحنت فقبلتها في جبينها، وقامت منصرفة لا تنتظر من عيدة ردًا. تابعتها الفتاة بعينين مندهشتين، وعقل يتغابى عن فهم ما قالته تلك المرأة عجيبة الأطوار. مع إغلاقها باب الحجرة الواسعة. دارت عيدة بناظريها في الحجرة. سعادتها بالاستحواذ على حجرة السيدة حلت محلها غصة وهي ترى نفسها في أركان الحجرة، تسمع، وتجيب، وتخضع راضية. غير مالكة لاختيار سوى الرضا. أزاحت الغطاء من فوقها، وقامت لتنزل من السرير. فرأت وجهها في المرآة أمامها.

رائعة هذه المرآة، كأنما هي جوهرة أو بللورة سحرية. يجب أن ترى ما فيها جميلا وإن كان صورتك. "أنت طفلة يا عيدة".. بدا لها أن كلام چيچي حقيقي!.. ملامح وجهها تنضح بطفولة كتلك التي في إعلانات اللعب. قامت مسحورة، تقترب من المرآة وتبحلق في عينيها.. يدق رأسها كلام إبراهيم يناقض ما قالت چيچي "عنيكِ فيها ألف شيطان، أعوذ بالله منك!".. تدقق أكثر، يدق قلبها خوفًا، وتغمض عينيها للحظة. تفر إلى السرير باكية..

- ربنا ياخدك ياابراهيم؛ ولو امك بقى دافعت عنك المرة دي يبقى ربنا ياخدها هي كمان

(11)

ضحكتها وصلت إلى نهاية الأمواج، وهي تهز رأسها مستنكرة، قبل أن تقول:

- ايه المشكلة إسرائيليين ولا يهود ولا إيرانيين ولا عفاريت زُرق؟ انت بتستهبل ولا بتلبسني العِمة؟

فاجأه رد فعلها، فلم يكن هذا ما يرجوه. لقد منَّى نفسه بهيبة في عينها، كتلك التي رآها فيهما دومًا في حضور نوَّار. منَّى نفسه أن تخاف، فتقبع تحته امرأة يمنحها هو، لا -كعهدهما-ينتظر منحتها هو. كل مرة جمعتهما، كانت تصر أن تعتليه هي، فارسة تحلب قوته وتستمتع بشهوته، وهو يفرهد تحتها من فرط النعمة التي تغيِّبه عن أمنياته في السيطرة. هذه المرة هو مصر أن يخضعها.. أن يستمتع برجولته فوقها.. يستمتع بنفسه لا بها هي كلبؤة مجتاحة. يعلم أنها واعية لما تفعل، ورهيبة الذكاء، ليس من السهل تلبيسها عباءة حمايته.

- افهمي يا نورهان.. ملفك كبر، والموضوع لو اتفتح هيقلب بقضية عامة، ومش هتقوم لك قومة تاني.

تنزع ذراعها، الذي قبض عليه أثناء كلامه، من يده، وترد ببرود وحاجب أيسر قد ارتفع ساخرًا:

- ده على أساس ان اللي بيدخلوا البلد بتبقوا عارفين يهودي ولا عبدة شيطان حتى؟ ولا يا بيبي بتبقوا عارفين.. هتفرق ايه؟ ما انتم بتسدوا منافذ الشوف كلها قصاد الباسبور يا حبيبي، وانتم اللي سامحين بدخولهم البلد، يبقى اللي يقوِّم الناس عليّ هيتحط معايا في نفس القفص

- ما تعمليش ناصحة قوي يا نورهان، ولما تستقوي فكري الأول مين اللي قصادك...

أشعل سيجارة في هدوء، ولم يدعُها إلى مثلها.. نظر إليها بابتسامة تمقتها كثيرا، وتجعلها تندم على لبس المايوه في وجود ذلك الضبع الباحث فيها عن جيفة لفظها نوَّار ظانًّا أنها فرصته..

- هات من الآخر يا علاء أنا لسة ما فُقتش من قلم نوَّار.
- واو! اللي يسمع ضحكتك من شوية مستحيل يقول انك ما فُقتيش.. دي وصلت البر التاني لإيطاليا.
- مافيش فايدة فيك هتفضل مقرف.

زفرت، وسحبت وشاحها الزاهي بلون برتقالي أكثر من برتقال الشمس، يحده الأسود في قوة تشعله أكثر، ربطته فوق نهديها، تاركة شفافيته تعيث في خيال الرائي فسادًا، وذهبت تتمشى بمحاذاة المويجات المقتولة على البر، ليلم البحر بقاياها، يحيي بها أمواجا فتيَّة تصخب لزمن جديد، قبل أن تلحق مجددًا بسابقات أكلها البر في غير اشتهاء.. فتعبث قدما نورهان بالبر وببقايا الماء، في غير اشتهاء أيضًا.

يراقبها علاء من مكانه متلذذا، جازمًا أنه استطاع طرق أبواب قلقها هذه المرة. يقرر أنه لن يلحق بها، تذاكيه أوحى إيه أنها يجب أن يصلها إحساس أنه لم يعد يلاحقها إلا بقدر ما تأتي هي أيضا إليه، وأن كفة سيطرتها تتخاذل وتحتاج منها انتباها. يطير وشاحها، فيكاد ينسى ما يخطط أمام إبداع التكوين، ولكنه لا يملك إلا أن يقوم إليها ليقض متعة البر والماء، مشاركا إياها عبثًا قد يبدو للناظر من بعيد بريئا.

(12)

عارية تماما لأول مرة في حياتها بجوار رجل. نائمٌ نوَّار كطفل وقد خلع كل أردية الجبروت، واتكأ برأسه إلى ذراعها، وانتظمت أنفاسه هادئة، بعد تلاطم استهلك طاقته، وأسلمه لسمية، هاربًا من دنياه عدا غرام عينيها الشبقتين. عارية، تستغرب عريها، على يد زوج ثالث، يلج بها جنة لم يسمع عنها أولئك العائشون في الأسواق والحارات. تتأمله، خاشية أن تلمسه بإصبعها الحائر في الفراغ متمنيا أن يمس خدَّه في حب، مندهشا من إمكانية أن يزرع ذاك الحب في العمق، حيث لم يُزرع إحساس من قبل، إلا بعض من أمومة شوهها الانشغال. خائفة من ذاك الآدم الراغب في التفاحة، والمالك أن يمنعها عن حواء لحظة أن يفيق. ليته يظل بضعفه هذا مستكينا في حضنها، فذلك آمَن لها من كل قوته ونفوذه، وليتها تصل لسره الذي يمكِّنها منه.

يتقلب في رقاده، فيحرر ذراعها، الذي تخدَّل، فتسحبه، وتثنيه وتفرده مرارًا تحرك الدم فيه. ما كانت لتجرؤ أن تسحبه هي وإن تخدَّل أو حتى تخدر، وسيدها، الذي هي سيدته، مرتاح عليه. تمد يدها لتسحب الغطاء الحريري، فتعود يدها أدراجها إلى مكانها، وقد فاجأتها صورتها في المرآة. كانت الخالة حسنات تجزم أن صلة الفَرج أقوى من صلة الدم.. حسنات بدوية، أو غجرية، أو هي غريبة، لا يدري أحد أصلها، ولا يعي الشباب متى ظهرت في السوق بتلك الخلاخيل والكرادين التي تخفها، حتى تجد زبونة مناسبة، فتناديها؛ وعدا ذلك هي لا تفعل شيئا، ولا يدري أحد كيف ترتزق ما يعيِّشها من وشوشة الودع، الذي لا يعيره من لا يجدون الخبز

اهتماما. تترك السوق، تسب نفسها إذ تأخذها دوما ذكرياته، وترمق صورتها في المرآة البللورية. إن جسدها كفيل بتمكينها إن صدقت حسنات.. لكأنه متمم الصنعة، لم يفته موطن إغراء إلا وامتلكه وتناسق مع سائر مواطنه في لوحة شبقة. تمنت أن يثبت صدق المقولة هذه المرة، فلا ثبت أولا ولا ثانيًا، وإن كان ذلك الثاني المشلول، الذي باعها بخسا، لم يصلها منذ البداية.

تتأفف.. تتأمل ما حولها في المرآة.. تشمئز من إدمانها الفقر إذ تفكر فيما فات وهي ترفل في فراش نوّار وحجرته ودفئه.. دفء الرجل الذي جعلها، لأول مرة، تسد أذنها عن صرخة عيدة، معتقدة في جزم أنه ليس الأهم في تلك اللحظة. تتأمل براءة النائمين تمرح على وجه رجُلها، فتبتسم عجبًا. مع كل ما في قلبه من عتمة هي واثقة من دكنتها ثقتها في أنها الآن بفراش نوّار، لازالت البراءة تحتله حين يغيب في نومه. هل أحبته؟ لا ليس بعد، لكنها تريد أن تحبه.. تريد أن.. تتزوجه!

يتقلب ثانية، عائدا إليها، ليحيطها بذراعه، ويجذبها، ليلتصق جسداهما. تشعر بأزيز كهرباء يسري في كيانها جسدا وروحا، فتقسم أن تربط هذا الناعس بما هو أقوى من الدم ومن الفراش معًا.

(13)

علق إبراهيم شاردًا:

- الشيخ بيقول ان اللي يفك رمضان من مسخرة التليفزيون هيعرف يحكم البلد دي صح

أفاق من شروده على رقع مسطرة الأستاذ محمود على درجه، يلحقها زعيقه، ونظرته الغاضبة..

- شيخ مين يا ولد. احنا هنا في حصة مش في خطبة الجمعة

لملم نفسه وهو يهب واقفا.. إنه لا يريد فتح أبواب النقاش، ولا لفت النظر للشيخ؛ شعر وكأنه أمام ضابط وليس مدرس..

- آسف يا مستر، أنا افتكرت الكلام بس وحضرتك بتقول ان أسامة بن زيد امتلك صفات القائد رغم..

قاطعه..

- اترزع وفوق معايا مش ناقص انا الشيخ بتاعك بروح امه

جلس فاتحا عينيه عن آخرهما، محاولا التركيز، متقيا لسان الـ (مستر) غير المستحي من سب شيخ المسجد. عيناه المفتوحتان لم تمنعا مخه عن الغياب مع انبهاره بحكمة الشيخ في رؤية القيادة، مفسرًا كلام الوزارة في الكتب ليطابق نبض شيخه المحسوب، فما أفاق إلا وقد انتهت الحصة بصوت الجرس.

- إبراهيم!

احمر وجهه، وهو يقوم ليرد..

- ايوة يا مستر
- تعالى عايزك

خطا إلى باب الفصل، مرتعشا بالتساؤل، حانقا على شروده وما فعله به للمرة الثانية في حصة واحدة. فوجئ بمدرّسه، يحوّط كتفه بذراعه، ويدفعه خارج الفصل، باحثا بعينه، حتى وجد "ميس هدية"، فاتجه به إليها..

- ازيك يا ميس هدية، هاستأذنك في الواد برهومه شوية كده بس عايزه في حاجة

بابتسامة لزجة وفضول تداريه فلا يخفى، هزت رأسها غير ممانعة، وإبراهيم يلعن الغباء، الذي سيورطه في استجواب طويل من تلك السخيفة، حين يطلق محمود سراحه ويعود إلى حصتها، التي ربما فواتها هو النافعة الوحيدة من ذلك الضرر.

....

- اسمه ايه المدرس ده؟
- مستر محمود
- قد ايه كده بالتقريب، يعني تديله كام سنة؟

- مش عارف يا مولانا!

تفاجئه صفعة انفلتت من غضب الشيخ.. ظل على إثرها ناظرا إليه غير مصدق، ووجهه يتجلى أمامه بلا فرق بينه وبين نوَّار السَّيد.. كلاهما في عينيه شيطان لا رحمة في نظرته. نوَّار لا يلام، ولا يصدم، فهو فاسد في أصله، ولا علاقة بأي شكل تجمعهما. لكن شيخه الحبيب، كيف؟!

قبل أن تفر دمعته، كانت تربيتة حانية على صدره تصالحه. لم يدر أيستجيب لها، أم يحفظ ذلك الوجه الجديد في قلبه مجاورا لصورة شيخ كان هو الملجأ والاقتداء والرؤية.. كلماته الخفيضة تدخل أذنه غير واصلة إلى عقله المشوش، وحنان اليد يخبطه غير واصل إلى نفسه، فيهب واقفا، دون أن يجرؤ على الذهاب بلا إذن، رغم كل شيء. لكن شيخه يومئ برأسه متفهما، مشيرا له بالذهاب، في حسنة جديدة تعيد إلى رصيده لدى الولد لبنة، لا يدري أتؤازر الصرح، أم قد تشوَّه بالفعل وإن قام!

يعود إلى حجرته الخالية من عيدة.. يرى احمرار صدغه، ولا مجال لتنفيث غضبه في غير الفراغ الموحود فيه. يسبها -عيدة-، ويسب الشيخ، ويسب أمه أكثر من الجميع، ويبصق على الأرض. تدمع عينه، فيمسحها سريعا مستكبرا، ثائرا لرجولة يقدسها في نفسه.. يجز على أسنانه، ثم يدير المفتاح مغلقا الباب لفة واثنتين. إلى السرير يتخذ خطى ثابتة، ويخلع ملابسه جمعيها، مستدعيا صورة حفصة، بلا تأنيب.

(14)

ليس نادمًا أبدًا.. كان في حاجة، وحقق حاجته. لا حكمة في منع ما هو ممكن ومتاح ومريح، حتى وإن غيَّر في خططك بعض الشيء. يفكر أن تلك الحقيرة لها مذاق مختلف يمده بطاقة إيجابية تعيده للحياة. ربما هي قدم سعد عليه، تحيي ما قتلته نورهان في روحه. هل قتلت نورهان شيئا كان حيًّا من قبل؟!.. يضحك.. الأقرب إلى الحقيقة أن لكل منهما عليه فأل وأثر لكينونتها. أرخى رأسه مستندا إلى الحوض المنحني في نعومة ليناسب استرخاء الراقد فيه. يستسلم أكثر لدغدغة الماء الساخن المضخوخ في موجات صناعية ناعمة تدلك جسده وتبث فيه التنعُّم. أخرج يده في الهواء المضبب بالبخار حوله، رسم على الهواء منحنى صعود أسهمه في السوق، وقال:

- دي نورهان

ثم رسم خطًا رأسيًا صاعدا إلى الأعلى مباشرة كصاروخ ناري. وابتسم مفكرًا أن هكذا سميَّة. تأمل خطها الوهمي، واستدرك..

- كده يبقى انا عايز الاتنين.. سهلة دي

لا، سهلة هي كلمة مناسبة إن كان الحديث عن اثنتين من النساء كلتيهما ترغبه ومصالحها معه. لكن ليس ذلك في وجود مشكلة نورهان مع أمن الدولة؛ فالاقتراب منها يضر المنحنَيَين معا، وهو لا ينحني للخسارة، مهما رغب. بأي حال، هو لا يحتاج في أعماله سوى

تركيزه الشخصي، الكفيل بصنع مائة نورهان أخريات، وإن كانت ـ والحق يقال- ذكية بما يكفل له راحة الحرية.

سمع طرقًا رقيقا، ربما مستحيًا، على الباب، فانتبه أنه في حمامه منذ ما يكفل قلق .... توقف عند الكلمة لا يجد مضافا إليها.. قلق!.. قلق فلان!.. هل إذا غاب، سيكون هناك "فلان" يقلق على غير مصالحه معه؟ هل فلان له اسم غير "فلان"؟ ضاقت عيناه لبرهة يستعرض البشر من حوله، ثم أجاب:

- سمية الحقيرة بس!

جاءه صوتها رقيقا ينادي باسمه في وجل، فعض شفته..

- حقيرة بس مزة

....

في المكتب حركة غير اعتيادية اليوم. قسوة الإجهاد تحجبها حماسة النجاح المدعمة بالتفاؤل بعودة نوَّار في كامل حيويته وجديته وحزمه. القيادة فن، ونوّار فنان يجيد تحريك فريقه وبثه من روحه. اليوم يمر، وهو لا يكِل، ورغبته في الانتباه والتألق تزداد حتى القمة، لكنه، كمتمرس، يدرك أن لحظة التوقف هي نصف طريق التقدم، فيخلي سبيل موظفيه، ويبقى هو في مكتبه منتعشا بإطفاء شوقه لنفسه بعد غياب.

على مكتبه الضخم يجلس.. يغمض عينه، ويبدأ تمتماته.. العودة إلى المقدسات حين الرضا واجب وحاجة، وهو قد ابتعد طويلا عن الحبيب

المتمم لطموحه. تلك اللغة الواصل بها إليه لم تمس شفتيه منذ أصابه الغِيُّ مع مشاكل النساء؛ تبًا للنساء إن لم يكُنَّ متعة.

ينسى.. يبدأ من جديد، ويقف.. ويبدأ من جديد، ويقف. يتلون وجهه بحمرة الغضب، ثم لا يلبث أن يصطبغ باسوداد الإحباط. يهم بخبط رأسه في المكتب، ثم يتراجع قبل أن تمس جبهته الخشب الصلد. صورة سميَّة تملأ المكان حوله.. تبدو إلهة قوية، منافسة، تدعوه، تحقِّر من حبيبه المعبود. كيف لها أن تجرؤ؟!

(15)

لا زالت تذهب إليه عند الطلب.. فقط عند الطلب، عدا ذلك، فله حجرته، وهي في حجرتها، التي في مثلها ابنتها عيدة، بلا تمييز. ليس الوضع جديدًا على مثلها، بل إن مساواتها بابنتها عيدة هي ترقية عما كانت عليه مع السيد. لكنه هذه المرة يعض على روحها.. ربما لأنها لم تعد المحتاجة لمأوى وظل رجل يقلل منها ويركنها لحين يعبث بها مرطبًا حياته، ثم يرسلها لحرِّ الإهانة بلا اعتبار.. ربما لأنها عرفت في نفسها مقدارًا لا تجوز معه إهانتها.. أو ربما لأنها تريد هذا الرجل، وهي لم تُرِد الرجلين قبله، ففقط كانا مجرد زوجين ابتعلاها.

أمام بخورها، تنتبه لزبونتها الصامتة المنتظرة، فتمنحها وصفة وموعدًا وتصرفها. تزيد البخور بعضا جديدا، وتلملم شالها الأسود، الذي لا يفارقها شتاء وصيفا، وتفلُّ راجعة إلى بيته، متسللة. لم تزل الأوامر أن زيجة السَّيد نوَّار -بجلال قدره- من الشيخة المدجِّلة هي مسألة سرِّية مشينة. من قال إنها تريد الدجل؟.. أفاقت لانفعالها تُحجِّمه بسرعة.. بل هي تريده ولن تدعه؛ فالمال في يدها قوة، مثلها تعرف قيمتها وتكاد تسجد لها قبل الزوج.

في غرفتها ترتاح، وقد طلبت كوب الشاي بالنعناع من چيچي، التي تراها متوددة متطيبة الروح، منذ يوم شهدت على زواجها في فراش نوَّار معليًا لها سيدةً للمنزل. تجلس إلى مرآتها، تفكر كيف أن نوَّار يريدها دائما خارجة من الحمام، ملتفة في منشفة ملونة تكون جاهزة على الفراش

حين تدخل إليه. نوَّار يخلعها من ملبسها قبل أن يحبها.. لا يأخذها أبدا في ثيابها التي تختار، ولا يخلع تلك الثياب بيده أبدًا.. دائما هي في منشفته التي لا تختارها، ولكنها رغمًا عن ذلك ترتضي من اختار وحكم.

تدخل چيجي، حاملة كوب الشاي، ورائحة النعناع البلدي تفوح منه، والعود في الكوب لم يزل أخضر، رسم ابتسامة على وجه بائعة الأخضر بمزاج ونشوة. أشارت لچيجي أن اجلسي، فابتسمت، وردت:

- طيب هجيب الشاي بتاعي وآجي

لحظات، وعادت چيجي تحمل فنجانها فوق الطبق الصغير، في تلك الكيفية، التي رفضتها سميَّة، رغم إلحاح چيجي، أن الأصول تفرض شرب الشاي هكذا. لكن ما إن جلست چيجي على الكرسي (الفوتيه) قريبة من سميَّة، حتى ضحكت الأخيرة عاليا في جذل..

- لملمتِ الحسنات كلها يا چيجي.. فنجان زي السَّيد، ونعناع زيي

ابتسامة چيجي واستمتاعها بالشاي جعلاها تشرد مع الفكرة المتأججة مع عبق النعناع.. إذًا فهي استطاعت التأثير في چيجي: أو النعناع من استطاع ولكن لا مانع أن تنسبها إلى نفسها، فهي من عرَّفتها به. هل سيمكنها ذلك مع نوّار؟.. لا تريد أن تتخلى عن جلدها لأجله. فهي سميَّة المدينة للجرجير بكرامتها وشرفها، ولتدجيلها بقوتها الجديدة، ولم تعد، بعد اللف في الدنيا، تحتمل إلا أن تكون نفسها، رأسًا برأس مع من تأتي فراشه. لو تغيَّرت إلى "حرم السَّيد نوّار" فهي مغامرة من كل ناحية.. هل تنجح في دور غريب تماما عنها؟ هل الـ "هانم" كيان سيجذبه إليها كما هي

جاذبته الآن؟ هل صغيراها سيتقبلان، أم يرفضان، أم يفتنان؟.. فوق كل ذلك، فسميَّة تحب "سميَّة"، لا تحب "سميَّة هانم".

بدأتها چيچي الحديث، بعد أن احترمت صمتها لبعض الوقت طال قليلا..

- مالك مدام سميَّة؟

ابتسمت.. هذه الجزئية چيچي من غلبت فيها، وأبت تماما أن تناديها "ست"..

- انت بقالك مع البيه قد ايه يا بت؟
- بت! (تنحنحت).. ما علينا.. أنا جيت مع نورهان، كنت معاها من قبل ما تتجوز السَّيد توَّار.

ضحكت سميَّة..

- زعلانة من كلمة بت.. معلش دي كده عند اللي زيي مَوَدَّة مش شتيمة.

احمر وجه چيچي محرجة..

- مش قصد..

أشاحت بيدها أن لا مشكلة..

- وللا قصدك.. أنا كده يا چيچي.. أنا سميَّة زي ما انتِ چيچي.. فاهماني؟

ابتسمت چيچي، تنهدت، رشفت من الشاي بصوت، كما لم تفعل من قبل.. قالت:

- عارفة يا سميَّة.. أنا اسمي جميلة مش چيچي.. أنتِ سميَّة لكن أنا مش چيچي

لأول مرة في هذا البيت واسع الصالات، عالي الجدران، تجد سميَّة في قلبها اتساعًا وعلوًّا لإحساسٍ طيب وشفقة محببة تتسرب إلى نفسها وتطل من عينيها. ترمق دمعة تغالب عيني چيچي، فتهم بتجهيز كلماتها لتربت بها على قلب رفيقتها. لكن الياسمين يذبله الشم، فكأن تنسُّم الطِيب قض جلستهما، فقامت چيچي حاملة الفنجان، ومادة يدها الأخرى لتأخذ الكوب من سميَّة، وهي تحني رأسها بتحية خفيفة، وابتسامة رسمية تعود لوجهها، ولسانها يسأل السيِّدة في آلية:

- حاجة تانية يا مدام سميَّة؟

همت باعتراضها على اللقب السخيف، فمن لحظة واحدة نادتها كصديقة باسمها مجردًا من الألقاب. تراجعت وأغلقت فمها، وهزت رأسها نافية، فانسحبت چيچي خارجة، وزفرت سميَّة متخلصة من الموقف كله، ومن شحنة التعاطف التي ملكتها فأفقدتها حكمتها بسهولة كريهة.

(16)

ليس السَّيد من يتنازل عما يشتهيه، وإن كان هو من لفظه مختارًا. هو السَّيد الذي إذا أراد أخذ؛ وهو في هذه اللحظة يريد نورهان تحت يده؛ راضية، لأنه لا يستمتع بمغصوبة. يعرف نورهان جيدًا، ويعرف أنها ستأتي راضية رغم لفظه المهين لها.

نقر بظفر خنصره الطويل على المكتب، ثم تناول هاتفه، ونقر شاشته ببطء، وجعل يتأمل اسمها في قائمته.. نورهان اسم أنيق، للبؤة أنيقة، لكنها مملة تكرر نفسها. في سميَّة وحشية العطش، وبكارة استكشاف المرأة للجنس، وجرأة المطلَّقة، وفرحة العاهرة بزبون مجيد بعد يوم نحس.. مزيج لا نشوة بعده. ولكن هناك نشوة غيره، والتغيير مطلوب.

- وحشاني

فقط هكذا كانت المكالمة، ثم أغلق الاتصال.

تفكر نورهان، في أي طريق يمكنها المضي. المقارنة بين السَّيد وبين علاء أو غيره غير قابلة للطرح، إنه الاختلاف بعينه. والدنيا التي تريدها وتتخذها ظهرًا؛ وإن لم يكن مأمونًا بعد ما حدث، تتجسد في السَّيد نوَّار، الذي يُحكم سيادته على قرارها الآن بثقة. زفرت، ورفعت الهاتف، واتصلت.. تعرف أنها لو لم تفعل فسيموت هذا السيناريو دون خطوة أخرى من جانبه. لقد أعطاها الإذن بالولوج عبر بابه، وكفاه ذلك مَنًّا ومنحة.

بصوت مرح، حرصت ألا يشوبه جرح كرامتها، قالت دون انتظار صوته:

- هاشوفك امتى؟

ضحك عاليا..

- برافو يا نورهان.. انت هايلة.. أذكى ست عرفتها بجد

طالتها الخيلاء بشهادته، وانبسطت سرائرها أكثر، وتخطت عتبة الشحناء؛ فالود أولى بالمصالح الكبيرة.. ختمت المكالمة -دون تطويل- بموعد، ووعد بردها لعصمته عرفيًا، في وضوح يليق بنوّار أن علاقتهما لن تتحمل ملفها الأمني.. يكفيها هذا مؤقتا.

قام إلى الشباك وراء مكتبه، يتطلع إلى السيارات المتحركة بالأسفل، كأنها طابور نمل مرشوش بمبيد من دخان العوادم فمضى مترنحًا. ماذا يريد من نورهان؟ لا يشتهيها، بل ربما، لفرط ما ينفر من جسدها وأنفاسها وشبقها المبتذل، لن يحقق فيها رجولته. لكن بداخله نداءً لا يريد مقاومته، يحثه ألا يقطع شعرة وصل، تمكنه من إيجادها وقتما شاء.

بالأسفل، صوت صرير يجذبه من أفكاره، ليراقب حادثا مروريا يتكرر كل يوم.. سيارتان يبدو أنهما استبقتا احتلال متر من الأرض خلا أمامهما، فاصطدمتا، وبعض سباب، وكثير من الانتقام ممن لم تصب سياراتهم، فليتعطلوا وليحترقوا في جحيم عدم الوصول. كل هذه أكوام من بشر لا يستحقون نعمة الحياة، بل ستتحسن الحياة كثيرًا لو تبرع أحد بنسفهم ومن يأسفون لهم معًا.

يغلق الشباك، فيحل الصمت، منعزلا عن الغوغاء وضوضائهم. يتجه إلى الأريكة، فيستلقي ويغمض عينيه، في كسل يحتوي شبعه باستيفاء تخطيطه ليومه بتوفيق يُحمد له. تطل في رأسه عبارة، لطالما علموها له في صغره.. يقلب شفتيه ممتعضا، مستهجنا منَ يحمدون غير باذل الجهد صاحب النجاحِ.. السفهاء!

يهم بصلاته، ثم لا يغامر بما ليس واثقا في قدرته عليه، فيُسكِت شفتيه، ويبتسم. سيصلي وسيتلو ويصدح كذلك، لكن دون عجلة، فليس كما التأني سلاحٌ للوصول.

(17)

اليوم مختلف كثيرًا، حاد الملامح في عمر عيدة، ابنة الحياة الطويلة المتكثفة في سنواتها التسع. عادت من مدرستها، إلى حجرتها، إلى حمامها.. الرهبة تملؤها، والحيرة من المجهول تتوّهها. هرعت تبحث، فلم تجد أمها في البيت. نزلت تستجدي ما لا تعرف كنهه ولكنها تستجديه، فنفسها تحتاج المؤازرة. لم تجد سوى من تلمّع، ومن يطبخ، وچيچي تعطي أوامرها هنا وهناك. فكرت أن تكلم چيچي، لكن تراجعت، تحس أن الأمر ليس مشاعًا لأيٍ كان سوى أمها. صعدت لغرفتها ثانية، وجلست على الأرض تبكي.. لا تدري لما البكاء، ولكنه كان السبيل الوحيد أمامها إلى الفكاك من هذا الانضغاط المُوشك أن يفجّر صدرها.

إبراهيم!.. هل يمكن أن تكلمه؟.. إنه آخر من يمكنها الائتناس إليه، بل هي لم تعد تشعر أن أدنى صلة تربطهما، عدا تماثل الاسمين على الكراسات، ثم إنه لا علاقة له بأي أحاسيس إنسانية، كي يؤازرها. نورهان!.. هل يمكن أن تتصل بها الآن؟!.. لو أن هذا ممكن، فلم لا تتصل بأمها؟.. فقط أمها من تحتاج، وأمها عاهرة منشغلة دومًا بنوّار الكئيب. ليت السّيد ظل زوجًا لأمها، فقد كان أباها الذي عرفت. أشاحت بيدها.. لا، لم يكن.. لقد باتت تشمئز منه لمّا ابتعدت ولم يعد هناك ما يضطرها لاعتياد قذاراته. كم أنت وحيدة يا عيدة، لم تحققي وسط كل تلك الصفقات حولك أي أرباح لنفسك.

....

الدار لم تعد نفسها التي أتت بها نورهان إليها. لمسات مستجدة حملت روح سميَّة ونشاطها وعلاقاتها بأولئك الآخرين. أضفت للمكان هيبة، وجعلته منتجعا لا يخلو من تيارهم المُكهرِب لمن يتخطى عتبة قاعتها. تلك المرايا المصقولة جدًا، التي طلبتها من نوَّار، فأتاها بها من بلاد بعيدة لا تحفظ اسمها الصعب، أمامها رفوف صغيرة عليها أمشاط ومكاحل هندية. المشاعل أتت بها من عرَّافة عجوز كانت تقرأ الودع في السوق – الخالة حسنات-، جلبتها من بدو الواحات. والمياه الساخنة دوما في دوارق من زجاج حراري فوق فحم وبخور تغيِّره بين نفح طيب ونفخ كريه. وسجن حديدي صغير، يتجدد محتواه من ذوي الدم الرخيص باستمرار، فمرة قطة ومرة حيَّة، أو غير ذاك..

تلك الوريقات، والمقص، والإبرة.. تلك الشوكات المدببة المنتقاة المنتزعة من أسماك نيئة تأكل الدم.. بعض زجاجات الخمر على رف مهجور تتعتَّق، ولا يشرب منها إلا نوَّار، إن أتى بزيارة نادرة.. وقصاصات شعر، وأظافر مقصوصة، وكؤوس تحوي عطارة نافذة الروائح.

أيام الشيخ الأخضر لم يكن شيء من هذا هنا.. كان الأمر لا يعدو بعض البخور والأكياس القماشية والورق المطوي.. كانت الدار مفتوحة لطرقاتِ بسطاء القرية، يقفون على الأعتاب، ويملؤون النظر من الشباك المفتوح.. وكان الناس يحبون شيخهم ويطلبون بركته. أيامها تختلف.. الآن، الشيخة السوداء، التي بدأت والناس تضع الأطعمة على الباب، فتشبع بها جوع بيتها، قد وصلت لأن جعلت الدار معزولة مهابة. حولها مزرعة خاصة بحاجياتها، يعمل فيها فلاح واحد، أتت به غريبا، لا يعرف

أحدًا ولا يخرج من المكان، وسور عالٍ بات يحتضن الدار والأرض، ويزيد في قلوب القرية الرهبة منها.

داخل جدارن، بداخل مزرعة مظلمة، بداخل سور عالٍ وحدها تجلس.. قلبها مقبوض بلا قابض واضح.. ولكن ثقة في أن شيئا مزعجًا يحدث وراء ظهرانيها تجعلها لا تكاد تطرف بجفنها، مشدودة قلقة. ذلك النوَّار يخطط شيئًا هو وإبليسه، لا تدري ما هو، ولكنها تراه واضحا أمامها مبتسما في خبث، متحدثًا إلى من يبعث في قلبها كرهًا عجيبا، ولا تعرف من هو. مرات عدة أرسلت من يسترق الخبر من عُبَّادها.. ضعفاء هم، كما لم تظن قبل ذلك اليوم، كل ما يملكونه ليس إلا طموح البلداء، وليس طموحًا يليق بها. مكتب نوَّار بالذات محجوب عنهم، لا يمكِّنهم حرسه من اقتحامه، وهي لا تملك مفاتح من هم أقوى من أولئك الفشلة، وتخاف كل الخوف أن تجترئ على أبواب أكبر، فلذلك شروط لو أنفذته تزل في هوة العبودية، وبئر النهاية.

لو خيِّرت بين نوَّار وأن تظل سيدة إلهة، لن تختاره بالتأكيد. تعتقد، لم تزل، أنها ليست كافرة، بل تلجأ بالدعاء كثيرًا، وما زالت تطمع في صلاة إبراهيم شفيعة عند رب السموات. ما هي إلا حاكمة لبعضٍ من خلقه، لكنهم مُجّانٌ، ينظرون الأخدود ما بين نهديها يتبدى من فتحة جلبابها، كذنبٍ صغير، فيعشقونها ويختارونها ربة. هذا جرمهم الساعي بهم إلى جهنم، ولا يد لها ولا ذنب فيه، وإنما فقط تستفيد منهم؛ والدين -كما كان يقول خطيب الزاوية في السوق- لا يحرم المعاملات مع الكافرين.

تتنهد.. هي تريده أيضًا.. هي في الحقيقة تريده، وليحترق كل ما حولها هنا إلى غير رجعة ولا أسف. لو فقط تأمنه، لتركت الدار وتمنت لو تنسى كل ما له علاقة بالشيخة. تتلفت حولها.. صعب على نفسها أن تدع كل ما بَنَت، أو أن تقبل الانكسار، وقد ذاقته عمرها إلا عامًا.

هل يمكن أن يحل إبراهيم مكانها؟ تعرف أن بعضهم يستخدم القرآن والذكر في جلساته.. تزفر، ليتها كانت تحفظ من ذلك، لما اشتبه بها إبراهيم واتهمها صريحًا بالكفر.. لو يعلم كم أن أمه مؤمنة، ربما أكثر منه ومن شيخه، ذاك الذي لا يمل الاستشهاد بسيرته.

تعتدل في جلستها، والفكرة تكبر في رأسها.. ابناها فاشلان في المدارس – على حد علمها-، وهي لم تطمح يومًا أن ترى أحدهما طبيبا لم يزل فاشلا يستجدي الراتب الأقل من حصاد فرشة الجرجير. عيدة مصيرها إلى زيجة تسترها، وتخلص قلب أمها من همها، والعلم ليس مستقبل البنات، فليست من أولئك المتمنيات الشقاء والوظيفة، وزحام الشوارع والمواصلات، وزوج فقير يستجير براتب زوجته، وحجرة مخلخلة فوق سطح إحدى البنايات لابنتها.

أحست بغصة.. زواج عيدة أمل ليس ببعيد، فهي حلوة فائرة، من يراها لا يصدق أنها ابنة تسع سنين. تريد فقط أن تطمئن أن عبثها لم يطل بكارتها بما يفضحها إن تزوجت. تنتبه متذكرة أمر انتقال الفتاة إلى غرفة نورهان.. چيچي قالت لها إنها من نقلتها، لأنها كبرت ولم يعد يصح أن تجمعها بأخيها حجرة مغلقة. ربما تكون على صواب، ولكن أليس ذلك

أفضل من أن تكون البنت وحدها في غرفة وفي البيت بعض الرجال، ليل نهار، سواء من الخدم أو الزائرين؛ وأولئك الزائرون لا راحة في وجوههم أبدًا، بل يبدون كأنهم خرجوا من القبور على موعد مع نوَّار يقضونه ثم يعودون أسفل التراب.

تشعر بنار تصَّعد إلى نافوخها، وهي تكتشف أنها نسيت أمومتها واستثمار عمرها الفطري، وهي فقط منتبهة لترسيخ زيجتها وكسب نوَّار؛ وليته مقيدها، فما أيسر عليه من رميها مهما اقتربت، كما رمى نورهان دون صعوبة. وكالعادة، يدخل أحد لابسي النظارات السوداء، القادمون في سريَّة تحمي مصالحهم.. يرمي بالذهب حيث تشير تحت قدميها أرضا.. لتنسى ما عدا متعة سطوتها وسيادتها على السادة.

....

في مكانها نامت، وفي مكانها وجدتها چيچي وقد تلوثت ملابسها والسجادة من تحتها بالدماء. أغلقت الباب وراءها، واقتربت منها، وجلست إلى جوارها.. ربتت برفق تناديها لتوقظها. لتُهب فزةً..

- ششششش في ايه بتتخضي ليه؟ أنا باصحيلِك بس علشان تتغدي

تسحب طرف ثوبها، تتغطى، فتبتسم چيچي، وتمد يدها إليه لتنهضها..

- قومي خدي شاور يا ديدي، وانا هافهمك الموضوع كله ما تقلقيش خالص ده بيحصل لكل البنات.

تابعت..

- ادخلي وانا هاحضر لك هدومك

دخلت عيدة، غير سعيدة بحضور چيجي المتكرر في حياتها. شيء ما يقف بينهما، ويجعلها لا ترتاح لكل حنوِّها، الذي -وإن احتاجته- تشمئز منه. حتى نورهان القبيحة أقرب إلى نفسها من چيجي. لكن نورهان ذهبت، ويبدو أنها لن تعود؛ كما لا تعود سميَّة أبدًا.

صغيرة جدا، لتحرم من طفولتها، وتنتقل إلى الأنوثة. كان يمكن أن يقال ذلك إن لم تكن عيدة المقصودة، ولم تكن سنواتها التسع، أو المقتربة من العشرة هي ذاتها ما مر بِعِيدة من عمر، فيه ما فيه مما لم تخبره شيباوات.

تعود چيجي يخنقها الغيظ من تلك الغافلة، سميَّة.. تغسل السجادة بيدها، ولا تنادي الخادمة. أرادت أن تعطي البُنيَّة بعض إحساس بخصوصية سرها الصغير، الذي سيفشيه جسدها تغيُّرًا، شاءت أم أبت. تزفر مقاومة قرفها مما تغسل.. هي غير مسئولة عن أخطاء أمٍ تشتاق لرجل، فتنسى أن تسأل عن ابن غريب الأطوار أو ابنة ضائعة بين شخصيات شاذة تملأ هذا البناء، الذي لا يحمل من صفة البيت إلا جدرانا، لا تحمي أحدًا من عوامل تعرية الروح. تنهدت..

- الله يرحمك يا أمي.. أمهات ايه دول اللي ما يستاهلوش يبقوا أمهات!.. جتك القرف يا سميَّة أنت والأشكال القذرة اللي زيك

(18)

- بسسسسس بسس.. حفصة

تلفتت متعجبة، لتجده مختبئا خلف سيارة، فتسارع بخطوتها نحوه مرحبة..

- ازيك يا إبراهيم؛ ايه انت ما بتجيلناش ليه؟

سكت قليلا.. لن يقول لها شيئا بالتأكيد، ثم إن الوقت لا يسمح بحكايات، ولا هو كذلك قد اقترب من قلبها بقدر يضمن أن تؤازره نفسها ضد أبيها. فتح كتابه، وأخرج مظروفا مطويا، وناوله لها. قبل أن تسأله عنه، كان قد فر من أمامها وهو يشعر بسخونة تجتاح جسده، وألف خاطر بألف عقاب من الشيخ يجلد دماغه.

منذ ذلك اليوم لم يذهب إلى المسجد، أقفل بابه عليه دومًا.. حتى مدرسته، تبرع بكرسيه فيها لتلميذ ما، لم يأت له أهله بكرسي ينحشر عليه بين الثمانين زميل في فصله، ومكث هو في بيت نوَّار، حيث لكلٍ حريته الكاملة في ألا يكون فردًا ضمن جمعٍ لا يراقب بعضه بعضا أو حتى يتساءل أين غاب الآخر.

يومًا بعد يوم يدمن حفصة في خياله، وتعبث شياطينه بنوايا -لا تتحقق- لتحويل الخيال لحقيقة، إن تواتيه الفرصة. أحيانًا، تؤنبه نفسه إذ يجرح طهارة، هي وحدها ما رآه في الدنيا من طهارة، ويستصغر نفسه أن يكون اقتصاصه منها لا من أبيها ذاته. وذاته تلك قد رماها بكل نعوت السوء،

وحمَّلها ذنب كل ليلة يسفح شرف حفصة فيها، وذنب قرارات يخطط لتحقيقها بروِّية.

لطالما رأى أبا حفصة أبًا له تمناه، لطالما شعر أنه مجذوب وراءه بنورٍ أكبر من الانطفاء، وأقوى من حبال القرابة والنسب، التي لا تصله بأحد، وما عرفها إلا سماعًا. ولكن أثبتت له الأيام أن الوقوع يزداد مصيبة كلما ارتفع البناء، وقد كان شيخه فوق جبل يعصمه من المساس، فلما دفعه بصفعته من فوقه، لم يُبقِ في نفسه مجالاً إلا لدفن الصنم بكامله تحت أغبرة السفح.

الخبط يتكرر، والوسادة لا تكتم صداعه، حتى ينتبه أن الأمر خارج جمجمته، فأحدهم يطرق باب الحجرة.. وينادي..

- افتح يا ولا

إنها سميَّة!.. ما الذي ذكَّرها به تلك الشيطانة؟!. قام متأففا، وفتح الباب، و..

- ايه بالراحة، هتوقعيني
- قافل عليك ليه يابن الـ..

قاطعها غاضبا..

- يابن الكافرة.. هو في أنيل من كده تقوليه؟

خلعت حذاءها، فابتعد عن مدى ذراعها، فقذفته به.

- كافرة أنا آه.. كافرة يا مؤمن قوي يا بتاع الجوامع والشيوخ؟.. كافرة ياللي الشغالة خدت اختك من تحتك، مش كده؟ أنا اللي كافرة يا ضلالي يا وسخ؟ أنا اللي كافرة ياللي ما فيش حد ما اشتكاش منك، ولولا خاطر الكافرة دي كان اداك على قفاك؟

فوجئ بثورتها، وفوجئ أكثر بمعرفتها بأمره مع عيدة. فتسمر للحظة تمكنت فيها من قفاه، فبدأ صراعهما بالأيدي والأرجل، حتى عضته في ذراعه، فصرخ والدم ينز من أثر أسنانها في جلده، لتوقفهما صيحة لم يتوقعها أيهما..

- ايه اللي بيحصل ده؟!

كان نوّار، وكان العاملون بالقصر مجموعين وراءه، متفاجئين كلهم بما يدور وما يسمعون. فتحت فمها ترد، في محاولة لأن تقول له إن الأمر بينها وبين ابنها، لا مكان له فيه؛ فما كان منه إلا نظرة كفيلة بخرس لا مجال لمداواته. كان إبراهيم يبكي مكتوم الصوت، وينظر إلى الدم على ذراعه مذهولا. أشار لها نوّار أن تخرج من الحجرة، فألقت بفردة حذائها الأخرى من قدمها بعصبية، فكادت تصيب نوّار، فتفاداها وهو يخفي ضحكة انتشاء غالبت الجدية على محياه، ثم أشار لمنصور السائق، الذي تقدم خطوتين، فقال له:

- خده المستشفى يدوا له مضاد حيوي وللا يشوفوا هيعملوا له ايه في اللي عملته المتوحشة دي.

....

هو من فتح باب حجرتها.. أتاها حيث هي، وأغلق الباب وراءه بالمفتاح تكّتَين. كانت غاضبة لا تطيقه، وكان متحفزًا صارمًا. تقدم نحوها في صمت. لم تقم، جرها من شعرها. أنهضها من جلستها على حافة الفراش، آخذا إياها إلى ركن بالحجرة، حيث أدار مقبض الستائر الجانبي، ليفتح بابًا. دفعها عبره إلى حجرة واصلة بين حجرتهما. كانت بالنسبة لها مفاجأة أخافتها، ولم تطمئن لما سيفعله بها هذا الساكن الجنون في عينيه. أمسك عباءتها، التي لم تكن غيَّرتها إلى ملابس البيت، أمسك نسيجها بيديه حول رقبتها، ثم مَزعَها تماما في جذبة واحدة لم تكلفه سوى ثانية من الزمن. كانت ترتعش ذاهلة من غرابته ونظرته الأشبه بقط امتلك صرصارًا، ثم أخذ يلهو به بدلا من أكله. بدأت تدافع عن نفسها لا ينقصها العزم، فكم وقفت لكُبَّار السوق، فعرف كلّ مقامه وصلابتها. كتَّفها في حضنه بذراع واحد، وجذب بالآخر الباب فأغلقه، وشد ستارًا وراءه. كان يتحرك وهو مثبتها في صدره، وكأنها دمية مرتخية لا إرادة فيها، بينما هي تتملص كارهة لهو شبعان معتبرها صرصارا تحت سطوته. ضغط زر الضوء بلون أزرق كئيب. دفعها فوق فراء مفروش على الأرض، فصرخت.. ابتسم، خمشته، وضربته بقوة، فزأر كضرغام نشوان، ومضى يزيل كل ما يحجب جسدها من قطع الملابس -ولم تكن كثيرة- ثم تخلص من ملابسه. كانت تسبه، تضربه، فيزداد جنونه.. تضعف لبرهة أمام لذتها، ثم تقاوم، وتعضه، وتلكمه، فيغوص بأظافره في لحمها الشهي، ويزداد فحولة.. خارت تماما، مستسلمة للمجون معه، يقلِّبها كيفما رغب، ويصرخ، وتصرخ ويتألم، وتتألم.. وينتشيان بالألم المجنون!

حين صحت، لم يكن هو قد صحا بعد. أخذت تتأمل وجهه في ذلك الضوء السخيف، فتعشقه كما هو، بكل الشر الناضح منه. اليوم فقط هو زفافها.. اليوم أتاها حتى فراشها ولم تذهب هي.. هي الآن سيدة البيت وسيدة هذا الذي أنهكها وأنهكته حتى نام هكذا لا حول له؛ لو قتلته الآن ما قاومها.

تلوَّت في غنج، آذنة لنفسها بحق في التبذل والجموح والمتعة. دفعته.. بعنف أكثر لكزته، وأيقظته. فتح عينيه مندهشا، رأى في عينيها ما يشتهي تماما، فابتسم وسبَّها، ثم هجم عليها فجأة، وافتتحا حفلا جديدا، هي فيه لاعبة أكثر تمرُّسا.

(19)

رغم أنها لم تتقرب، إلا أن راحتها في علاقتها بنوّار أرخت ستائر السكينة عليهما، حتى أنهما صارا يتحدثان، بعد زمن ظل الكلام بينهما مقطوعا كأنما لا يريان بعضهما بعضها وإن اجتمعا. كان لها شهر وبعض شهر لا تخرج، بل تكاد لا تترك حجرتها، كأنما قررت أن يكون لها "شهر عسل" يطول بطول شبقها غير المروي لسنوات عجاف كثيرة. لم تنتبه العروس أن ابنها لم يذهب لمدرسته طوال عسلها، ولا أن ابنتها عانت المغص مرتين لازمت فيهما فراشها. لا إبراهيم غضب لغفلتها، بل ربما أراحه أن تغفل. ولا عيدة لامتها، بل ربما كانت سعيدة بما تراه في وجه أمها من حلم باتت تدرك ميلها إليه بغريزة أقوى من عبث طفلة.

اليوم، أفطرت معهما للمرة الأولى منذ كثير جدا.. ثم أنبأتهما أنها ستنزل إلى عملها. رمقت إبراهيم وهي تتكلم، تحاول أن تستشف رد فعله، فما وجدت إلا لامبالاة مقنعة، وقد ماتت في عينه تلك النظرة العدائية تجاه هذه السيرة.

لم يكن إبراهيم ليفتح نقاشا يؤدي في آخره إلى معرفتها بخطابات المدرسة المتكررة، التي يتسلمها هو، منذرة بفصله. يفضل أن يؤجل المواجهة إلى أن يتم الأمر، ويرتاح من تلك الوجوه هناك. كل بعد عن أمه هو راحة وهدوء، ولتهنأ في زيجتها وفيما تسميه عملاً، وفقط لتدعه وشأنه لنفسه.

عيدة، على النقيض من أخيها، كانت تتمنى لو ترى أمها كيف أن الحال يتبدل، وأنها قد أصبحت في مدرستها على ما كان يبشُّ له وجهها مع

إبراهيم أيام كان بيت السِّيد يحتضنهم. كانت تتمنى اقتناص لحظات تخبص فيها بأخبار الصبي، فأمه كفيلة بإعادته إلى المدرسة كأن تلك الخطابات لم ترسل ولم تكن، وهي في حقيقة الأمر تريد أن تتشفى في إحباطه. تتمنى لو ترى سميَّة.. ولن ترى سميَّة.. لا يهم، أو يجب ألا يهم، فانتباهها الجديد للدرس، ونية اللمعان التي عقدتها هي عهد لنفسها أن تكون قوية بنفسها، لا أن تكون ابنة للشيخة التي يسكرها رجل فتغفل عن الحياة، ولا أختًا تُطحن تحت ضرس أخ جهول.

إبراهيم قرر أن عليه البحث عن شيخ حقيقي، يُعلِّمه هذه المرة، لا يحبه ولا يتقرب منه.. يريد أن يتكوَّن على يد علمٍ يشعر أنه الدين والطريق إلى الإله، لا كمثل ذاك المدَّعي، مجرد صورة تتكسر مع أول موقف حقيقي ينفعل فيه. شهران مرا وعقله لازال يئن بالسؤال عن مبرر لما فعله الشيخ. شهران وهو لا يفهم ما الذي أقلق شيخه من مجرد مدرس تافه في مدرسة الحكومة التافهة. حتى حفصة، بعد أن رآها تبتسم له وهي تحتضن كتبها، احتقر نفسه أن ظنها يومًا ملاكًا محصنا. بكى في ليلته تلك أنها لم تشتكيه لأبيها وترجُمهُ أن اجترأ على عفافها برسالته المبتذلة. كل بيت الشيخ صار في معتقده كذبة من جهنم لا أنفاس للجنة فيه كما ظن طويلا.. ربما فقط فطيرة العسل من يد ست البيت يفتقدها وهو يرمق أمه على طاولة الإفطار.

عيدة لا تنطق ولا تعلق على كلام سميَّة. هو كلام ليس للتعليق، وإنما فقط إعلام لا تدري ما ضرورته.. ربما تريد أن تبلغهم أنها أخيرا شبعت وبدأت تنتبه لوجود حياة أخرى خارج خريطة الشهوة. في المقابل – وكل

شيء له مقابل في عرفها- نزعت الفتاة حق أمها في معرفة أين ابنتها من أطوار الحياة. چيچي تتكفل باحتياجاتها، وتمتثل لرغبتها في إخفاء الأمر عن سميَّة، ربما لأنها تدرك أن مكانها خارج كل العلاقات بين أهل الدار، أو لأنها تأمل أن تكون هي الأقرب من عيدة، أو ربما بلا سبب وعيدة من تتعب عقلها في البحث عما لا محل له.. لكنها – چيچي- على كل حال محققة لما أرادت الصغيرة.

مرتاحة إلى هدوئهما وبعض العبارات القليلة التي تُتبادل بينهما، قامت سميَّة إلى حجرتها، لتعود في كامل سوادها، وتتجه للباب.

....

الشيخة جاءت.. كانت في رحلة إلى عالمهم وعادت. لقد غابت طويلا هذه المرة.. لم تغب مثل هذه المدة من قبل. بالتأكيد لم تعد كما ذهبت، فلقد سحقت سيدتهم.. وتزوجت ملكهم.. وعادت متوجة على أهل ما تحت الأرض، مزدادة قوة إلى قوتها.

هي لا تلقي بالا لتلك الحكايات، فليقولوا، فإنهم يرتاحون لما يقولون، فما يجدي اعتراضها إن حكوا، ولا يضيف قبولها لما حكوا. بدا أنهم نسوا أن وجودها بينهم بالكاد تخطى عامًا واحدًا؛ لكنهم يتعاطون الحكايات والنوادر كأنما ولدوا ليجدوها على رؤوسهم. فليحكوا أنها توّجت، فهي بالفعل تزوجت ملكًا، وأخيرًا، بعد عمر في رق الجواري، أحست في نفسها روح ملكة، خائبة من تترك ملكها، وهي لن تتركه بعد أن ركبت العرش بقوة.

يتوالى الداخلون، الخارجون وهي -في روتينية- تجردهم من همومهم، وتهديهم آمال الفرج.. هكذا كانت منذ امتهنت المشيخة السوداء هنا. لكن الأمر هذه المرة لم يكن ككل مرة.. شيء مقلق يعبث بتركيزها مع المريدين، وربما انتقل إليهم هذا الإحساس، فلم يخرجوا بتلك الراحة التي كانوا بها يخرجون. حين خرج آخرهم، ووارب الباب وراءه، كادت تصيح به أن دعه.. لكن لسانها لم يكن بالسرعة التي اكتسبها الباب ليدور حول مفصله ويصفع المتبقي من تماسكها بصوته. ووراء الباب، كانت ترتج من القشعريرة، وتسمع الهسيس أقوى مما سمعته أبدًا.. الأمر حازم، غير مسموح أن تغيب.. الغضب واضح أنها قد مالت للحبيب.. القرار نهائي أن الحبيب إلى أن يجيء غريب!

غضبت، حاولت أن تكون الأقوى.. أن تصدق ما يقوله مريدوها عن عرشها وحكمها على معشر جنودها. لكن هذه المرة كانت المقايضة صريحة، إما نصيب منه، أو لا تطلب عبادًا يلبُّون.

كيف يطلبونه؟ إنَّ هذا لو نبَّأ فليس إلا عن جهلهم وعجزهم عن معرفته. إنه ممسوس ممن يعلونهم ويغلبونهم شرًا. ألا خوف عليها، طالما هي معه؟.. ولكن أيحميها نوَّار؟ السؤال الأسوأ، هل هي على استعداد للتبدل من سيدة إلى.... تقاطع سؤالها ملحوظة ساخرة.. ساخرة حد المرارة: كيف تكون السيدة وهم يهددونها، ويملون طلبهم على إرادتها، ويقايضون استمرارها على بئر الذهب بحضور نوَّار؟!

نوّار لن يحضر.. وهي لا تريد له أن يحضر.. هي لا تريد أن يغلبوه، فغلبتهم تضييع لمن يقهرون، وهي لا تحتمل أن يقهروه. تحتاجه.. كل ما فيها يحتاجه، كـ "سميّة" المشرقة بالحياة، التي هي الأهم من الشيخة وسوادها. هي أيضا لا تريد أن يغلبهم ويغلبها، وآنذاك يجعلها تستسلم للركوع لسيده. إبراهيم يقول إنها كافرة..ككل موقف يخنقها تئز كلمته في عقلها.. لكن هذا ليس حقيقيا.. إنها تلجأ لله وتعرف أنه موجود. تعرف جيدًا أنه وحده من أكرمها وأغناها من بعد فقرها، بل ووسع في عطائه فرزق جسدها بفحل يشبعه بعد طول جوع. كل الفرعيات الأخرى عن تعاملها الشاذ مع سكان هذه الدار واستجلابها للمال بعونهم، وعن شيطان نوّار زوجها هي أشياء لا تمس إيمانها بأن الله موجود لا تركع لغيره.. الأمر الآن يصل لتهديد هذه الركيزة، وهي بدونها لن تثق في دنياها وزن خردلة.

أحست باختناقها أكثر مع هسيسهم، الذي لم يعد مجرد وسوسة.. يجثم ثقل رهيب على صدرها، والصوت يعلو، وحنجرتها تعجز عن دفع صرخة إلى حيز السمع. تحاول ألا تضعف.. تعرف أنها لو ضعفت لحظة انتهى أمرها.. تقاوم، تحاول تذكر أيَّةَ آيةٍ سمعتها ذات مرة من ابنها، فتعجز عن استحضار شيء منها، بل وعن استحضار أنفاسها.. تجاهد أكثر، حتى تطلق صرخة خافتة، بكلمة واحدة: "إبراهيم"!

فوجئت بنفسها تفيق، ولم تكن تلك سِنة من نوم، بل كان سحبًا لوعيها، لم تدرِ كم استغرق. التفحت بشالها وخرجت مسرعة في سوادها، تركب الميكروباص وتشرد في كآبة عمرها التي طالت أكثر من سنينه. أهم من

طلبوه، أم هي من عرضته فداءً؟ لا تدري ولا تعي ما حدث تمام الوعي. كيف إبراهيم، وهو ابن المسجد والشيوخ: شيوخ الدين، لا شيوخ الهوانِ الأمَرِّ. تبتسم متحسرة على شرودها الوردي لأول مرة في رحلة القدوم.. لم يُكتب للمرة أن تمسي اثنتين.

....

رأى، فكأنه لم ير.. كل شيء يمكن تأجيله.. لكن هي لم ترد التأجيل. تركته يكمل تعريتها تماما.. ثم جلست أمامه متحفزة تشير إلى صدرها وأثر الاحمرار المُغير عليه..

- عايزينك

انحني ليقبل موضع إشارتها ويفح كلمته بالمقابل..

- عايزك

فكرت أن تدفعه، لكن عادت للحذر، فحسبت أمورها، فاستجابت له. حبل قوتها حول رقبته هو استجابتها.. لا ثورة ولا امتناع، بل لجة الغرام عقد سيطرتها، فلتتشبث به.

"البهجة عرف الأديان. لا حرام في أي بدعة تبعث بهجة وتجمع القلوب. قل لي متى علمت صالحا من السلف عُرف بتجهمه، أو صالحة عُرفت بالنكد؟.. لو أنني حرَّمت، فستكون المباكي ما أحرم يا ولد، فالله لطيف."

يضحك، تاركا لصوت الضحكة الحرية في التجلي.. "يا بني، لو أن الاعتراف بوجود الحرام حرام، فكيف برسولٍ يرجم الزانية على الملأ؟.. تعلَّم ما يمكنك تعلمه عن الحياة، فالجاهلون بواقعهم يزيدونه خرابًا."

"لا يا ولد؛ من يملك موهبة ولا يستخدمها يحاسبه ربه. كل موهبة من الله فيها خير ورسالة مكلف بها صاحبها، وموهبته هي وسيلة أدائه لرسالته. فقط، لا تدع شرور نفسك تستولي على خير موهبتك؛ يمكنك حينئذ أن تضر من أنت إلهم مرسل".

إنه عجيب في كلامه.. ولكنته وفصحاه يضيفان عليه مزيدًا من عجب. جذبه يوم صلاة العيد، إذ غاب الخطيب، فتقدم هو كدارس في الأزهر، فاستنكر الناس بنعرة الوطن، فرد عليهم فصيحًا، فكان أبلغهم، وأحفظهم للقرآن، وأعلمهم بالدين. ربما ليس لأنه الأولى بالخطابة والإمامة تركوه يفعل؛ ولكن لأنه -مع كل ذلك- أفحمهم ببشاشته وبساطة عرضه أن يتقدم من هو أولى منه إلى المسئولية، فأحجم الجمع المعارض ذابلين.

"أنا من بلاد ساحرة يا ولد.. ساحرة الجمال نعم، ولكنها أيضًا ساحرة بالمعنى الأصلي. عندنا كثرة من العلاقات الخفية والأعمال الفوقية. نحن رغم ذلك متدينون، كما ترى."

والولد يتبلبل أكثر، لا يفهم حقًّا ولا باطلاً.. فكر أن يعتزل المسجد والصلاة والرب ومن خلقهم ليرهقوا فطرته الباحثة عن الراحة.. فكر أن يهرب؛ لكن إلى أين المهرب وكيف؟.. فكر، حتى خر ساجدا يطلب الرحمة ممن يرحم، متسائلا إن كان ينوي أن يرحمه، أم هو آخذه بنجاسة هذه الدار ومن تحتوي.

....

چيچي تنسج على إبرتين.. جميل منظرها في ضوء الشمس المحمر بنهايات العصر واقتراب الغروب، ووشاح أزرق يلم شعرها للوراء، كي لا يطير فيضايقها، بينما يداها مشغولتان بإبرتي النسيج الطويلتين. تمسك عيدة بكراس وتخط كروكي يحمل ملامح طيبة وغزل يزداد مع انتقاله من إبرة للأخرى بقدر لا تدركه العين، ولكن تتابعه بطيئا يتدلى إلى حجر الجالسة، والشباك وراءها، والشمس تصنع حولها دائرة من نور مغاير لظل باقي المساحة حولها.

تجتهد أن تربط هذه الصورة بصورة بائعة جرجير شابة، تركز بعين مع زبائنها وعين على عيالها. الوثاق لا يقوى، وهذه غير تلك. الهم كان دائما إبراهيم، والأمل فيه، والتكبير له.. تتوقف خطوطها على الورق، وتسافر على بساط أثيرها إلى السِّيد.. هو من كان ينصرها. وهو من علمها أيضا ألا تكون طفلة. تبتسم.. دائما تبتسم إذ تذكره، ولا تكره ما فعل بها أبدًا. كان إنسانيا في شره، وهذا يكفي.

- ده بتاعك على فكرة

ينتهي لقاؤها الأثيري بالسَّيد سريعا مع انتباهها لچيچي، فتهز رأسها متسائلة. فترفع المرأة غزلها تفرد الإبرتين على نفس الاستقامة وتمط النسيج محاولة أن تظهر تصميما ما، تبرز فيه أجزاء وتغوص أجزاء، وتلتف أجزاء كثعابين ركيكة الرسم. يرتفع حاجباها، وتسأل بلهجة جافة كفيلة بإحباط مستقبلتها:

- ليه بتاعي؟

تعود چيچي لتثبيت إبرتها تحت إبطها، والتركيز مع حركة آلية بأصابعها، مبتسمة دون أن ترد.

تتأملها عيدة دون أن تغتاظ من عدم ردها.. ربما هي أكثر من منحها دون سؤال للمقابل، ولا تزال تمنحها. هذا لا يفرض عليها أن تحبها، فهي لا تطمئن لأولئك غير واضحي المطالب. علَّمها السَّيد أن الحياة دائما بيع وشراء، ومن لا يدفع ثمن ما اشترى لن يهنأ طويلا، ومن لا يأخذ بضاعته مقابل ما دفع إنما يبتغي بضاعة أخرى غير مُفصِح عنها. نورهان كانت السَّيد الثاني في حياتها، وإن جاءت في شكل امرأة أنيقة. كانت تطلب بوضوح -رغم رفضها للفضول-، وتعطي بدقة بما يرضي من أرضاها. كلاهما -كسَيِّدَين- ارتأيا فيها شَرَه الجسد، فأرضياه رغم اختلاف عبثهما.. كلاهما كان مذاقا غير الآخر، وإن وحَّدهما إله المصالح المقدس. أطرقت في بؤس لحظة.. وكلاهما الآن لا حاجة لهما بها، فألقياها بعيدًا عن حياتهما. لكنها أيضا لا حاجة الآن لها بهما، فطريقها يبدو أمامها منحوتًا بظفرها هي، بملامح جديدة بعيدة عن كل من تعلقوا يوما في ذيل سميَّة.

....

(...) أول النهايات

في الدار الخضراء، الشيخة السوداء أمام المرآة الكبيرة، تخط بالمكحلة عينها، وتتخطى جفنها بمسافة.. فكأنها إلهة فرعونية.. والكحل حار، وعيناها مفتوحتان عن آخرهما لحجز الدمع المُحتَرّ داخل سجن الجفون، كيلا تَفسد الزينة. ليست وحدها؛ بل حولها كثيرون، وإن كانت لا تهتم لهم، وإن كانت بعضهن تطلبن منها تكحيلهن مثلها في انبهار، وإن كان بعض رجالهم يكتحلون أيضًا!.. جميعهم، نساء ورجال، ليسوا من القرية؛ لكنها غير مستغربتهم، فلطالما كان زبائنها من أولئك المرفهين الباحثين عن العبث أمثالهم. كذلك، فبعضهم رأتهم في فيللا نوَّار من قبل، في حفلاته في القاعة السفلى تحت الأرض.. كانوا في الحارة يسمونها البدروم.

دقات دفوف في الخارج، عالية وتعلو أكثر، بأكف نساء تحمل ملامحهن طين القرية، ومرارة العيش، واسوداد القبور. والسَّيد نوَّار ونورهان المبهرجة الزينة يترجلان أمام البيت من سيارة ليست لهما، ويدخلان مباشرة إلى الحفل، يتقيان أن ترى ضاربات الدفوف وجهيهما؛ لا يعرفان أن سميَّة أتت بهن عمياوات البصر. يلجان إلى الظلام وضوء المشاعل، يقفان بعد المدخل بخطوات قليلة، ويرفع نوَّار إصبعيه السبابة والخنصر، فيراه صحابته.. ويهيجون، ويردون التحية بمثلها، فيبتسم، ويحكم الباب وراءه.

المكان ليس غريبا على أيهما، فنورهان من أتت بسمية إلى هنا، وصنعت منها تلك الشيخة المهابة، قبل أن تغلب التلميذة المعلمة، وتأخذ منها نوَّار بسحرها، وتصل به لأن يطلقها. ترى الرعية يزدحمون ويحيُّون.. ها هي الآن تعود رفيقته ونجمته ومدعوته الأولى لحفله الأهم وقدَّاسه الأكبر، لتثبت لسميَّة أن انتصارها كان وهما ليست بحجمه، وإن أصبحت "شيخة".

نوَّار أيضا كثيرًا ما كان يأتي لأجل الحبيب هنا.. كم تقرَّب في هذه القاعة، وكم افتض أبكارا، وكم دفن من أجنة الزنا تحت هذه الأرض التي يقفون عليها.

المزمار البلدي يصرخ، بعد أنين ناي ناعٍ للبهجة، ليكتمل المشهد السماعي مع الظلام والبخور والكحل الممدود.. وعينين مجموعٍ ضوء النار في عسليتهما، ليتعلق بهما الجمع إلا نوَّار، الذي يصر هذه الليلة أنه من سيقود صاحبتهما، وإن كان في ذلك نهايته.

تهمس نورهان في أذن نوَّار، وهي تتعلق بذراعه أكثر، وتنظر نحو سميَّة، لا تدري أيغيظها حقا أنها من جديد المجاورة لنوَّار، أم أن رهبتها من تلكما العينين والنيران والحفل القادم تجعلها تخشع وتتمنى فقط أن تدعها سميَّة لحالها..

- الستايل ده رهيب انا عمري ما حضرت حاجة كده بجد
- خايفة؟!
- أكدب لو قلت لأ

يضحك في سخرية..

- علشان أنت دجالة أونطة زباينك فاقي لو جت منهم واحدة هنا هتطب ساكتة

سكتت تجز على أسنانها.. إنه لا يلجئها إليه، بل يستغل الموقف ضدها. دائما يثبت لها أنها الأضعف، وهو ما يحنقها من سميّة حد الرغبة في قتلها؛ وليتها تستطيع. لا يهم الآن، فلتستمتع بالجو الجديد.

يأخذ جرسًا صغيرًا من فوق رفٍ جانبي، فيهزه تسعًا. ينصتون جميعهم إلى رناته، ويتمتمون بالعد معه، حتى إذا ما وضعه في مكانه، رفع جميعهم تلك الأقراص الصغيرة إلى أفواههم، واحد واثنين وثلاثة، كل حسب مزاجه، ثم صرخوا في بهجة لبداية الحفل.

يجذب أحدهم نورهان من ذراعها الأبعد، فيخلي نوّار ذراعها الآخر، لا يلتفت وراءه، ويتجه إلى سميّة لا يخفض عينيه عن عينيها. تفاجئها قوته هذه المرة، فتبتسم.. تستكشف قدراتها أكثر، وهي تراهم يحوطونه، وتتسع ابتسامته، وهو يرى من يحيطونها أيضا.. يصرخ، فترفع يدها ان اصمت.. تترك مكانها، وتقترب منه، وتقف ملتصقة به، وعيناها تحملان شبقًا يطفئ الشر في عينيه، فيبتعد بهما عنها هاربا من قلب لا مكان له هنا، مرسلا نظره إلى نورهان، حيث يقترب آخر مع من أخذها، ومع رفيقه ينزعان عنها ملابسها برفق، ويداعبانها في مجون. يبتسم للمنظر ونورهان لا تقاوم حقيقة.. إنها مستجيبة أكثر منها متمنعة، وهو يعرف أن عنفوانها

الجنسي يتفجر الآن ثائرًا راضيا بهذا التجديد المختلف. يعود بعينيه لسمية، التي بدت فزعة مستنكرة، تقول:

- ايه اللي بيحصل؟ انت قلت لي زار وهتتحداني فيه، مش انكم هتعملوا فيها كده.. حرام!

ضحك.. ضحك بقرقعة أخافتها، وأحست معها أن بئر اللعبة قد اتسع أكثر من حساباتها جميعا. جذبها من ذراعها بقسوة، لأول مرة يفعلها.. لأول مرة لا يضعف أمامها.. الفزع في عينيها أحالها لمجرد امرأة في حضرة شيطان. قال وهو يرمي بحبٍ كريه في عينيها، ويَهِسُّ بصوته مترقفا، فينفرها أكثر..

- انتِ وللا هي؟.. اللي هتقلع؟

بتلقائية، ضمت ثوبها إلى صدرها بيدها المطلوقة، وتكومت جالسة حيث رماها في كرسيها أمام النار.. أرخت جفنيها متقية النظر إلى كل تلك القذارة، تتفكر في كل ما وصل بها إلى مكانها هذا. سحرت نعم، دفنت أعمالا، وفرقت أزواجا، ونفَّرت خاطبين من فتياتهن، واستعانت بسادتها، حتى أوهموها أنها السيدة، وأنها عروسهم المأمولة. رغم كل ذلك، هي لم تكن ماجنة أبدًا.. هذا الحاصل لم تتخيل يوما أنه يحدث على هذه الأرض، ولا حتى في ظلام الليل في السوق تحت فرشات الخضر، بعد انحسار البشر عنه، ولجوء العاهرات إليه.

فزعت وصراخ نورهان الماجن يقززها، وقد استلقت على ظهرها على الأرض والرجلان يعبثان بها معا، وتُسكب عليها الدماء، من كيس صغير

في يد امرأة أخرى لونت وجهها بألوان الجحيم، تهتز مع الدقات كالمغيبة. وتراقب الرجلين بعينين مجنونتين وهما يدلكان جسد نورهان بالدم في كل مناطقه، لتعود فتسكب المزيد.

تلفتت سميَّة بناظريها، فما وجدت فيهم إلا جَيعمٍ يثيره أيا كان شيء إلى جواره، امرأة أو رجل، أو حتى يحك نفسه في كرسي أو حائط. كادت تتقيأ.. همت بالوقوف مستديرة نحو الباب، فوضع كفه أمامها وهز رأسه مبتسما، متشفيا في ضعفها، وبدأ يتراقص في خلاعة. لم تدرِ بنفسها إلا وهي تصفعه، وتنظر له في غضب وجسدها يرتعش..

وفقط ارتعاشة جسدها كانت هي الحركة الوحيدة وسط مشهد تجمد تمامًا، على وجوه مذهولة وأعين ثائرة، وصخب عزف لا يدري عازفوه ما يحدث هنا.

بإشارة منه، بدأ الموجودون يتحركون صوبها، وبدأ هو يتراقص أكثر، وهم من ورائه يقلدونه، ثم يزيدون اهتزازا كالمجانين، إلى أن أحاطوها وهي كالمشلولة لا تجد مهربًا.. تركهم مع صرخاتها، وإلى مكان نورهان ذهب، فانتزعها من الأرض، ودفعها لتسقط بعيدا، وهي كأنما جنت تتحسس نفسها ومن أراد الحظ أن تكون في جواره. أخرج من جيبه كيسا وهم يتابعونه في توتر، أخرج من الكيس شمعات صغيرة سوداء، وبدأ بإشعال واحدة، فصرخوا، وجرى أكثرهم إليه. فأعطى كل منهم شمعة، ثم أخذ كيس الدم من المرأة الواقفة في ترقب، فسرب منه خيطا رفيعا إلى الأرض يرسم نجمة خماسية واسعة أكملها بحرفية

لتشكل البافومنت، ووقف حاملوا الشموع حولها، صفين، ليكتمل العدد اثنتي عشرة شمعة، ثم صاح بأولئك الذين لا زالوا حول سميَّة، التي تكاد يغشى عليها، فحملوها، وأتوه بها جريا، ووضعوها على النجمة، ثم أشعل كل منهم شمعة، فاكتملوا ثلاث مجموعات كلُ من ست شموع. وقف هو يحمل سيفًا يشير به إلى البافومنت ومن فوقه سميَّة.. ثم بدأ يقرأ مفاتيحه السبعة، وهي تحت طرف السيف تفيق شيئا فشيئا، وتدرك ما هو مقبل عليه، فتصرخ بجملة قصيرة.

- أنا حامل!

أخرسته.. أعادت تلك النظرة التي تعرفها في عينه إليه.. أومأت له مؤكدة.. أعادت هامسة، لا تريد أن يسمعها غيره..

- ابن حبك يا نوَّار.. ماحدش حبك غيري.. ده الحبيب اللي هيعيش لك ويبقى سندك وصلبك وميراثك

وسط ضحك ومجون الجميع، صرخ.. صرخ بأعلى ما جاد به صدره من دفع للهواء عبر حنجرته، وخر راكعًا ذاهلًا، لا يستطع أن ينبس بكلمة، فقط يشيح بيديه، وينظر إليها عاجزًا عن تحديد أي شيء، مع صرخة الألم سكت الماجنون مذهولين أن يروه هكذا، لكن سرعان ما ظهر أحدهم يعترض.. مال هذا الكبير لم يعد كبيرًا؟ هو إذًا دم فاسد، إن لم يثب لرشده ويعتذر للحضرة القدسية، وإلا فليحل محل المرأتين.

لاقى كلام الشاب شهوة في العيون لجنونٍ جديد لا حد له، فتشجع وقفز كقرد نحو نوَّار، ليقترب منه ويصيح به:

- تفرق في ايه حامل ها؟ تفرق في ايه؟ بالعكس.. قربانك بقى دوبل.

اقترب منه يفح في أذنه..

- هتقدم أغلى حاجة تقربك وترقيك.. يا بختك.. ابنك اللي في بطنها ده مش هيكلفك حاجة، انت أصلا لسة ما حبتوش.. يعني مش هتزعل عليه.. لو كمِّلت هتبقى دكتور، "ماجوس".. عارف يعني ايه؟ يعني اللي ماحدش مننا هيوصلها في خياله

صرخ به فجأة..

- فوووووووق

لكن سميَّة كانت هي من أفاقت واستجمعت نفسها.. كانت هي من جرت إلى نيرانها وهمهمت بتمتماتها.. كانت من جلست وابتسامتها تعود، وكأن حاجزًا من قوة قد أحاطها، فلم يعد لهم إليها سبيلا. رأت في عيونهم الخوف منها، فازدادت ثقة.. رأت نورهان مرمية، سكرانة، بدا أنها زادت كثيرًا في ذلك الـ LSD الذي حدثها عنه نوَّار قبلاً وأغراها به ولكنها أصرت في رفضه. رأت نوَّار يُحمل كعجلٍ، ويوضع في ذات المكان، ورفيقه يحمل السيف.. رأت نورهان تجري عارية معهم تشاركهم لعق دمائه.. ورأت نفسها وصرخاتها تعلو فلا تبين وسط صرخاتهم الاحتفالية المجنونة، وهي عاجزة عن أكثر من أن تحمي نفسها، و..... كل شيء تم على عينها، وصار السَّيد في حقائبهم الصغيرة الأنيقة، ربما لطقوسهم الخاصة فيما بعد، أو كمجرد ذكرى، وبعض عظام حفرت لها هي في أرض الغرفة، فيما بعد.

وكأنها ليست هنا، يترنحون منصرفين في نشوة الخوف والهروب.. حين فتحوا الباب، سكت العزف، ثم حل الصمت تماما بعدما ذهبوا. فوجئت بضوء النهار قد أطل بالخارج.. كأن كل ما كان هنا حلمٌ من الشيطان تسارع في دقائق، أو كأنه عمرٌ طال حتى شاب معه القلب والروح، أو كأنهما الحالين معًا دون حاجة لشرح كيفية مزجهما.

الحياة ثانية.. !

(1)

كانت أيامًا لم تعد موجودة.. انتهت، وليس كل ما ينتهي يزول. الزوج بالذات لا يزول، ولو أنه نوّار فالأمر أشقى. إنه بصمة على أصابع الحياة المكلفة بتشكيل عجينة مَن تمُر في حياته. نورهان لم تمر به مرورا عابرا، بل تغلل في نفسها وبيتها وعملها بقوة. حتى جسدها، تغلغل بأثره عليه، سواء حين يشتهيه أو حين يزدريه. يمكن أن تسمي نفسها "نورهان ما بعد جهنم"

تتنهد.. تتذكر أنها ليست وحدها زوجته. لكن غريمتها لم تعد غريمة، فضرتها السابقة شريكة حالية مهمة في حياتها. لم تزل سميَّة إلى الآن أرملة تائهة لم تفق بعد للحياة، ولم تستوعب أن نوّار لم يعد معها.. هي الأخرى شعورها بوجوده يحيك بصدرها، خاصة حين تدخل بيته؛ إلا أنها تتشبث بكل مقتضيات الإيمان بأن الحياة الآن أجمل.

رغم كونها أرملة غير رسمية، نتاج زواج عرفي سري، لم يكن له قيمة إلا ترضية المرحوم لها –إن كان مرحومًا- لكن على أي حال الصفقة مع سميَّة ليست سيئة.

تتنهد ثانيا.. تنتبه لكثرة تنهداتها، فيضايقها ذلك، لكنها تعود للتفكير أن هذا أنسب كمظهر عام لفترة قادمة. تتجول في المكان بعينها، تستكشف فخامة لم تكن تنتبه لها من قبل، فنوّار كان يجذب كل انتباهها حيثما وُجد، ويشوّش رؤيتها عدا لأوامره.

- معرفتك كلها فوايد يا حبيبي، حي وميت

تضحك.. غريبة على لسانها كلمة "حبيبي" لنوّار، طعمها ماسخ، ولكنه محتمل على أي حال بعد موته. على ذكر موته يصيبها القرف. كان مقززا في معتقداته وفي طقوسه وفي ميتته. كلما تذكرت أنها في سكرة المجون شربت من دمه، بالمعنى الحرفي للجملة، تكاد تتقيأ. في حياتها، لم تنحدر لأسفل سافلين كتلك الليلة القاتلة.

لم تقاسمها سميَّة دم نوَّار، وهي لم تقاسم سميَّة مشقة دفنه، أو دفن بقاياه بتعبير أدق، بعدما نهشه تلامذته، أبناء الشيطان. كانت أول مرة تصدق وترى بعينها عُبَّاد سميَّة، يثيرون المكان ضجيجا وفوضى، حتى جعلوا جرذان نوَّار يفرون من المكان لا يفكرون حتى في الاستتار بما خلعوا من ثيابهم. لكن من بعد أن دفنته، هدأت عيناها، وذهب ذلك الألق الذهبي الحامل للقوة منهما، فذهبت رهبتها مجددا من قلب نورهان.

لكن سميَّة على ما يبدو قررت ألا تتقاسم معا شيئا بعدما قاسمتها نوَّار. إنها تحجب عنها ميراثها كأرملة له، متحججة بذلك الحمل، الذي تتعجب نورهان أنه رشق في رحمها، وهو ما لم يصدف رحمًا ظل يستقبل ماء نوَّار سنوات. هل رفضت بطنها استقباله، أم رفض هو أن يزرع فيها خلود شجرة زقُّوم تُطلِع رؤوسَ شياطينه؟..

تفيق من سوداوية حقدها.. تضحك وتهز رأسها.. ياللسذاجة!.. إنها هي من كانت تمنع الحمل كي تقضي وطرها من هذا وذاك دون مشاكل.

ليست نورهان من تنتظر مزاجًا ساديًا يرغبها ويزهدها ويهين شبقها. ليست من تكتفي بفن واحد من الرجال أيضا.

تضبط يدها متلبسة بتحسس بطنها، فترفعها على المكتب وتضربها بالهاتف الذي تمسك به في يدها الأخرى، فتؤلم نفسها وتطلق سبة موجهة لحماقتها. نوَّار يطغى على عقلها وإحساسها، والمكان ينبض بروحه ليقبضها، فلا تجترئ أن تخطئ في حق مجموعته التي كانت قدس أقداسه. لم تزل تشم عطره يشع من حوائط وأثاث المكتب. لقد كان ينثر من العطر في جو الحجرة التي يجلس بها أكثر مما يضع منه على جسده. فقط بعض أنواع قليلة ما يستعمل، وبعضها مصنوع خصيصا له، ما كان صدره يقبله دون أن تثيره حساسية الربو. كان يدير مجموعته من هذه الحجرة، فكانت هي برجه ومسجده، ولا تصدق أن موته يبعده عنها..

لم تعهد ذاك الإبليس إلا مطامحًا، يبتغي الأعلى، ويتمنى عرشًا لا يعلوه في الأرض عرش، ولا حتى لحاكم بلد متخلف مالك جنبات أرضها وأرواح أهلها. لطالما سعى، حتى طرق من أبواب العوالم المظلمة مالم تجرؤ على طرقه هي أو أحد ممن تعرف في المجال. ضحى بكل شيء وأي شيء، لأجل الوصول لسفح المجون وجني الرضا الأعظم من العاصي الأول. كان يتلو عليها ناموسه.. تذكر صوته وهو يترنم: «*تعَلَّم يا طالِبَ الوُصولِ أن المشاعرَ غضبٌ، والمبادئ خبثٌ، والنجاحَ أنويَّةٌ مطلقةٌ؛ فإن آمَنْتَ بذلك مضَيتَ كالبرقِ صاعقًا، تمهّدُ طريقَكَ الصَّاعدَ بثقةٍ وثباتٍ، لتكونَ السَّيِّد*».

ولقد كان السيِّد.. أعطى لنفسه لقب السَّيد، فلم يرفضه أحد، ولم يُشكِّك فيه أحد، بل عن قناعة أطاعوا ونادوه به. فقد كان وفيًّا لهدفه، وظل عمره لا يرضى إلا بمزيد من السعي، ويجاهد لأن يكون الأوحد.

تزفر في حنق.. أتراك جننت بها يا نوَّار أم سحر هذا؟.. أكل تلك القسوة التي نمت في خلاياك، ورغم ذلك بكلمة منها تموت؟.. أي روح أحببتها بها يا نوَّار لتزرعَ بذرتك فيها، ثم تفتدي هذه البذرة بعمرك؟!

(2)

في ذلك اليوم، الذي جلست فيه إلى جوار سميَّة، بين نسوة المدينة وقد أتين في السواد الأنيق، وهي ترد عليهن التحية، وتمنع عن سميَّة أسئلتهن، ارتكنت سميَّة بصدمتها إليها. حتى إذا انصرفت المعزِّيات، وتركن المرأتين وقد أخذ الإنهاك منهما ما أخذ، انفردتا في حجرة مكتب نوَّار، وأغلقت نورهان الباب بحرص، ثم إلى جوار سميَّة جلست وأمسكت يدها.

وبابتسامة حاولت أن تبث نعومتها فيها، طمأنتها إلى استخراج شهادة وفاة طبيعية بمعرفتها، وأن بمعرفتها أيضا ستتيسر لهما إجراءات الميراث.

مسحت سميَّة في كم عباءتها دمعة قد بردت وأبت أن تجف، وابتسمت متهكمة:

- بسرعة كده يا نوَّارة؟.. إلا هو ده أحمر شفايف وللا لسة من دم الراجل؟

احمر وجه نورهان، لكن أردفت سميَّة سريعا قبل أن تطلق نورهان غضبها في لسانها..

- انسي يا نورهان، ومن مصلحتك انك تنسي، واسمعي مني..

وشرحت بنت السوق في هدوء مُقنِع أن الإدارة ستجلب لنورهان أكثر من القسمة. وقالت إنها راضية بذلك ثمنًا لجهلها، وتحليلا لميراثها. لقد تكلمت بثقة كبيرة بصيغة المالكة!

أن تعمل نورهان لدى سميَّة، ذاك كان بعيدا عن أي خيال؛ لكن أن تمتلك إدارة أموال السَّيد نوَّار، فذلك الأبعد الذي لا يمكن رفضه. إدارة أعمال بحجم مجموعة نوَّار حلم أكبر من مشروعات الدعارة والدجل التي مهما كبرت تظللها بمرتبة دنيئة بين أصحاب النفوذ. والميراث لا تضمن الحصول عليه بعقد زواجها العرفي.. "رئيسة مجلس إدارة مجموعة نوَّار" ياله من مركز!.. إنه وضع يؤسس لها قوة وحصانة، ويغلق ملفها في أمن الدولة أيضًا.

وافقت.. لم يكن أمامها إلا أن توافق. حاولت التركيز في كلام سميَّة عن تنسيق الأمر بينهما، لكن التهتك المتأصل في كيانها وميلها الغريزي -ليس كالإدمان، وإنما كجزء من تكوينها- يظل إلحاحا يقاطع كل إغراء إدارة المجموعة. سميَّة في الأسود، ولمعة الدموع، وذلك الانكسار الذي يراهن الشيطان على قوة إغوائه أكثر من الجمال، والحجرة المغلقة، ويدها التي بالفعل على فخذها تربت عليها مواسية.. إنه مشروع ضخم، يشاغب طموحاتها، وانكسار سميَّة الشديد قد يؤهلها للاستجابة. من الأكيد أن ذلك الحمل سيجعلها تقاوم، ولكنها بعد انقضائه ستكون في الغالب قد أفاقت وما عاد الحادث يجثم على أعصابها الواهنة، فهي فرصتها الآن فقط، وببعض التحنن ربما يمكنها الوصول بها

للسرير. الفرصة إما الآن، وإما لن تأتي. وإن أتت، فستمتلك سميَّة وكل ما وراءها دون أي احتمال أخرق يهددها.

أفاقت من أفكارها على سميَّة تزيح يدها من عليها، وتبتسم ابتسامة من قرأت كل ما دار في ذهنها. عادت في لحظة كما عرفتها نورهان في تلك الليلة، امرأة شديدة العريكة، تسيطر على عفاريت حقيقيين لم تملك هي منهم واحدا أبدا. لن يحدث ما فكرت فيه يوما، فإن كانت بهذه القوة الآن، فإن ابن نوَّار، يوم يصبح حقيقة في حضنها، سيؤزارها أكثر.. وربما، إن خوَّنتها، تخلصت منها بضمير مرتاح، ثأرًا لدم شربته ذات ليلة مجون، من شفتي نوَّار.

(3)

العدة تنقضي أياما وراء أيام، حتى مروا ثلاثة شهور وذلك الساكن داخلها لا يؤنسها بحركة، وكأنما في حداد على والدٍ لن يراه، أو أنه يشارك أباه صمتا في قبر بشري من رحم حزين لا يداعبه ذكر. تنسل دمعة متكررة -وإن لم تعد ساخنة- كلما أتى ذكر القبور، التي لم يعرفها جسد نوّار. نهشوه.. أمام عينها نهشوه وقضموا لحمه!.. لم يكن يستحق تلك الوحشية، رغم كل شيء. كانت له لحظات حنان يؤثرها بها.. رغم أنه كان هو رب الفجور في تلك الثلة ومن علمهم السواد، إلا أنه افتداها، ولولاه لكانت هي وجبتهم ومشربهم.

تتأمل بطنها في المرآة.. تجز على أسنانها حتى تصر.. لا، لم يكن يفتديها.. لقد تركها لهم وشاركهم كصاحب وليمة. فقط حين علم أنها حامل بنطفته افتدى نطفته. إنه لا يستحق أن تبكيه.. لا يستحق أن ترعى نبتته، التي يعلم الله وحده مدى شيطانيتها وميراث الظلام فيها.

ألف تنهيدة لا تريح هذا الصدر الضائق بكل ما يحويه من أنفاس حياة فاسدة.. في الفقر فاسدة، وفي الثراء فاسدة.. مع المُعافى فاسدة، ومع العليل فاسدة.. ثلاثة رجال كلٌّ من زاوية، ليتكمل مربع الحياة بها فاسدا، وتؤكد على فساده بطريق اختارته ولم تزل تتمسك به وبما يمنحه لها من قوة وسيادة فوق الرقاب.

تلتفت فزعة لصوت إبراهيم يناديها في رفق.. متى دخل عليها؟!..

قال:

- أنا خبطت كتير لحد ما قلقت، خصوصا أني سامع صوتك بتكلمي نفسك جوة

تتأمله في صمت، فيصمت هو الآخر.. تنتبه أن ملامحه تغيرت كثيرًا. بدا لها رجلا مكتمل الوسامة رغم نحافته الشديدة، بعينين أوسع من الأرض، وجبهة أعرض من جبل. عظمتا وجنتيه أبرزتهما نحافته أكثر، فهما جذب للعين الأنثوية كي لا تفلتهما إلا وشفاه بضة تبحث فيهما عن ملاذ قبل هبوطها إلى شفتيه لتستقر بينهما. بجسدها شوق مريض لزيجة مريضة بعث بأفكار مريضة ردتها إلى مشاهد أشد مرضا تحت الجسر في السوق وعيدة تخترق جينات رجولة إبراهيم قبل أن تنبت علامات الرجولة على جسده. قامت معتدلة ومستندة إلى ظهر سريرها، تطرد المرأة وتستدعي الأم باستماتة.. وتشير بيدها إليه أن اجلس..

- كبرت يا إبراهيم في غفلة عين!.. هو أنا فايتاكم بقالي كتير كده؟!

يضحك..

- طيب حمد الله عالسلامة، وما تفوتيناش تاني بقى كفاية
- معلش يا إبراهيم.. معلش.. ما انت كبرت وفاهم برضه يعني ايه اني أترمل تاني

يطرق لثوانٍ، ثم يسألها:

- هو أنتِ اترملتِ أولاني بجد، وللا هربتِ من أبويا؟

ماذا؟ من ذا عبث بدماغك يا إبراهيم، وأمك لا تطيق مزيدا من الهم فوق ما تحمل؟ تنظر إليه، وبابتسامة قطرت غلاً رغما عنها؛ أو ربما عن عمد..

- هات من الآخر يا إبراهيم.. جاي عايز ايه أنا ماليش خلق لقرفك يا ابن ابوك
- عايز ابويا (قبل أن تفتح فمها للرد، أكمل) يس مش وقته، أنا عايز اعمل مشروع، ومن الآخر كده علشان ما تقلقيش، مش عايز فلوس من بتاعة سيدك نوَّار. أنا عايز البيت بتاعك
- مشروع! مش لما تخلص مدارس!..
- المدارس ما بقتش بتعمل بني آدم.. كان زمان وجبر
- يعني ناوي على ايه؟
- أنا هاخد معهد دعاة وعايز البيت بتاعك؛ أنت خلاص مش بتروحيه
- بيت ايه يا أبو بيت؟ واسم الله يا حبيبي البيت ما هو بتاع نوَّار وللا أنت تعرف عن أمك انها كانت ورثته من ابوك اللي بتدور عليه؟!.. ثم خد هنا.. سيدك نوَّار دي تطلع ايه؟ لو فاكرني اتهدّيت دا انا أقوم اسكعك قلمين يعدلوك ويفكروك اني امك يا واطي. أنا لا كان لي ولا هيبقى لي سِيد إلا روحي؛ ولا انت يا مفعوص هتبقى سيدي في يوم، احسن تكون نسيت نفسك وبيتهيألك حاجات

تشيح بيدها..

- غور من قدامي بلا مشروع بلا قرف ما كفاية خيبتك وفضايحك، ابقى افلح في المدرسة وبعدين ابقى قول يا مشاريع

كاظما غيظه، يستدير تجاه الباب، مودَّعا بعبارتها "صحيح اللي خلف ما ماتش".. يقرر هذه المرة أن يرد عليها غيظه، فيلقي بتساؤله قبل أن يسرع بإغلاق الباب وراءه..

- يعني ما ماتش وللا مات طيب؟!

يسمع خبطة شبشها بالباب، فيقهقه قاصدا إسماعها، ثم ينفخ غيظا، وينزل إلى الحديقة.

(4)

الهدوء في هذا البيت كريه. صاحباتها تشتكين إزعاج البيوت، فهل هذا المبنى الواسع ليس بيتا؟.. تسمع عن الأم والأب يختلفان ويتشاجران، ولا ترى أمها تشاحن أحدًا، لا زوج ولا ابن، ولا حتى الخدم. تسمع عن سهرات أمام فيلم، وعشاء جاهز من أحد محال الشطائر، فتتخيل السمر وما يثيره من بهجة وإيناس. حكت إحداهن عن سَفرةٍ في نهاية الأسبوع لحيث جدتها وبيت وفطير.. لا جدة لها ولم تعرف أقارب لأمها ولا لمحة عن أبيها، حتى إذا ما سألنها في المدرسة من أين هي، قالت "من هنا" وضحكت وغيَّرت الموضوع.

حتى اليوم الذي تجرأت فيه، وقررت أن تفك حظر دخول صاحبة لها إلى هذا المنزل القلعة. اعتذرت صاحبتها بأن جدتها وأعمامها مجتمعون على الغداء عندهم. إنه ما يسمى زيارة عائلية: تلك التحركات البشرية التي لا تعرفها. كانت تتخيل أن زميلتها ستتمنى أن تدخل هذا القصر، الذي لا ترى مثله إلا على الشاشة أو في أحلامها؛ ولكن البنت فضلت زيارة أهلها.

تنظر إلى كتبها.. ضجرت المذاكرة، وأغلفة الكتب المرصوصة على المكتب، ولون الحروف الأسود دائما. لا شيء لها في هذا البيت إلا صفحات الدرس والاستذكار. فشل فشل فشل.. كل ما في هذه الكتب ليس إلا فشل الفاشلين، الذين لن تكون منهم. ولكيلا تكون منهم يظل عليها أن تغرق في نفس هذه الكتب الفاشلة لسنوات بطيئة. وضع مزري يخنقها ولا بديل له.

تقلب الكتب.. تتخير كتابا، وتفتحه وتبدأ في قراءة السطور، المكتوبة حسب هوى وزارة التعليم، القابلة التي تولّد للحاكمين عقولا خاضعة وحناجر مبتورة. يقفز السؤال ليأخذها من ملل الكلمات، فتقطب جبينها تفكر.. ترى، أحقا كانت صاحبتها مشغولة، أم أن سمعة هذا البيت لا تطمئن أحدًا لأن يدخله؟.. تتأفف.. متى سيمكنها أن تتخطى كل ذلك، قافزة إلى جوار نورهان في إدارة تلك التركة الهائلة؟.. متى تخرج إلى العالم وتصنع علاقاتها بقوة؟.. متى يتمنى الآخرون ودَّها ولقاءها؟.. أمها لن تفعل شيئا من ذلك.. يقف طموحها عند ما تقدر عليه، لا ما يلزمها التعلم لأجله. تثق أو لا تثق في نورهان أمر لا تنشغل به كثيرا، متعللة بأنه الوضع الأفضل من أي اختيار آخر، ومعتقدة أن صفقتها مع نورهان بعدم تقسيم التركة بينهما كفيلة بمعادلة كفة أطماع ضرتها.

إن أحدًا لم يضع القِدرة على فم عيدة لتطلع لأمها. تتنفس التمرد، وتزفر عدم الرضا عن كل ما حولها.. ربما كانت على استعداد للقتل إن وقف أحدهم أمام طموحها، ولنسف من يحاول قبض أحلامها في كف سيطرته. وحدها تسعى، لا يحس بها أحد، وإذًا ليس لأحد أن يقف في طريق إرادتها، ولن تسمح لأقرب الناس - إن كانوا حقا قريبين- بإملاء رؤية لا تخصها على مستقبل أيامها.

تزيح الكتاب أخيرًا، لاعنة الغبي الذي يجعل التاريخ أياما وأسماء للحفظ، لا دروسًا وعظات وخبرات على أهل الحاضر استخدامها. تقوم متململة من فراشها، لتقف أمام المرآة، تضع يدها فوق رأسها،

ثم ترفعها في الهواء بطول أمها حسب تقديرها.. ترفع عينيها لأعلى إلى كفها، لتحسب المتبقي.. ربما شبرًا أو أكثر قليلا، فأمها طويلة، "فرَسة" كما تقول النساء عنها. تشب على أطراف أصابعها، وتعض شفتها في غضب.. الضجر يجتاحها، التعجل يضيّق أنفاسها، فتلتفت إلى حقيبة المدرسة، وتركلها.. وتنزل إلى الحديقة.

....

(5)

وأمام المرآة، في حجرة مجاورة، تنظر إلى صورتها، تشد ثوبها حول جسدها، تقيس براحة يدها هذا الانتفاخ الصغير. الشهور تمر، والبطن تضمر.. والقلق يبدأ في نزعها من بئر نوَّار إلى سطح الواقع. تنادي چيچي، فليس سواها يمكنها ائتمانها.. ولا تدري لمَ يمكنها ائتمانها!

- أنا بقيت في السادس يا چيچي ومافيش حركة تقريبا وحاسة بطني بتصغر مش بتكبر!

- ما انت اللي معاندة ومش عايزة تروحي لدكتور.. أنا هاحجزلك

عيناها تدوران في قلق..

- تفتكري ممكن يسقط؟ ده بيقولوا بعد الرابع الإجهاض خطر.

تنظر إليها في تركيز، يطفو شبح ابتسامة لا يمكن اتهامها بالظهور الحقيقي، ويبقى الشك حائلا دون إدانتها..

- خايفة على عمرك وللا على البيبي؟

تتأفف سمية..

- ما تفلقنيش مش فايقالك.. (تسكت لبرهة مترددة) هو نوَّار له أهل؟

تضحك منفجرة بصوت عالٍ، بينما يحمر وجه سميَّة، دون أن تملك نهرها.. تتمالك چيچي نفسها وتنهي ضحكها، وتسألها وعينها تدمع لشدة الضحك..

- خايفة عالتركة!.. لا ما تخافيش أنت بس اللي هتبلعيها يا سميَّة.

في منطقة ما بين التودد والغيظ، ترسم سميَّة ابتسامة هادئة..

- عارفة أنك بجحة وبتنسي روحك يا بت؟

تتنهد چيچي مرسلة عينها داخل عيني سميَّة، في ثبات لو رآه نوَّار لحسدها عليه..

- لا يا سميَّة مش بانسى روحي ولا بجحة ولا حاجة من دي.. المسألة وما فيها أني مرات نوَّار أنا كمان، ومش عرفي زي نورهان.. العقد عندي، بس دا اتفاقنا وانا وافقت عليه، ماليش في فلوسه لا حي ولا ميت.
- مراته!
- آه مراته.. ما هو كان الله يرحمه -ان كانت تجوز عليه رحمة- أوبن بوفيه open buffet
- يعني ايه؟
- يعني ممكن يطلع لك كل شوية عفريت يقول لك انه من جوازاته وللا من خلفته الحرام حتى، بس لو مش عايزة تصدقيهم ولا تعبريهم، خليهم يروحوا يطلبوا حقهم في المحاكم.
- محاكم!

تهز رأسها، لتطرد كل ما قيل من وعيها، وتعود لأساس مشكلتها..

- عايزة اتطمن عاللي في بطني.. تحجزي لي كشف الليلة دي يا چيچي؟

تقوم من مكانها، وتلصق الرسمية بنبرتها ببساطة الاحتراف، وتنحني قليلا..

....

الجنين حي، ولكنه مريض .. مشوه، لا نصيب له في كثير من أنفاس الحياة. لو قررت أن تجهضه، فلا حرج عليها.. الطبيب يقول ذلك. والصالح يقول إن وصوله للحياة ولو لدقائق يجعل نصيب كل نساء نوَّار ما ظهر منهن وما بطن ليس إلا الثُمن، وهي فقط من ترث سبع أثمانٍ نصيب ابنها، بشرط أن يدخل رئتيه نفس واحد من الحياة.

الطمع؟ لا بل الحق..

تُقنع نفسها، فتقتنع.

لن تعرف نورهان بما فيها فتشمت وتتفتح مطامعها.. الوحيدة التي تحسب لمطامعها ألف حساب. المشكلة أنها ربما تحتاج دائرة علاقاتها القوية إن وُلد ميتا، لتحمي حقها من مجهول نوَّار الذي قد يتكشف ولو بعد سنين، فنورهان من استطاعت استخراج تصريح دفن نوَّار وهو مدفون بالفعل، بل وأقامت له جنازة نسيت سميَّة أن تسألها عما كان في النعش الذي شيعته.

تتحسس بطنها وتمتعض لاحتمالية موت جنينها، وفي نفس الوقت يدهشها تصيُّدها لحظات انكشافها أمام نفسها. ربما يريح ولديها أن ينتهي هذا الصغير ابن نوَّار. لا تعرف.. إنها لا تعرف عنهما عموما منذ فترة، فكيف عن مشاعرهما تجاه أخ لهما لم يأت بعد. بل ربما هما لم يعرفا أنها حامل إلى الآن. إهمال منها، فليكن.. ولكن بها ما بها، ولو اقتربت منهما ستكون عينا وليس ظهرا ولا حضنا. حسنا، الأمر لن يعدو

شهورا معدودة وينتهي الحمل، وينتهي قلق الميراث. ثم سترضيهما كيف شاءا.. ستأخذ إبراهيم إلى الدار؛ ولكن في حمايتها. ساذج يستهين، ومن يستهين يهان. لا يملك إلا مشاريع وأحلاما وطموحا من ضرع المنحة وليس التعب، أو على الأقل التعلم. لن تترك له الدار، ولن تتنازل عنه، على الأقل قبل الاطمئنان على ترتيب الأمور له مع ساكني الدار، الذين تعلقت بخيوط شباكهم رغبةً ورضا. كم وثقت منذ عرفتهم أنها المعبودة ولها القوة والطاعة، وكم كانت ثقتها في كذب ثقتها أكبر. لحظة أن تفكر في الابتعاد، تحققها الحقيقةِ بزعاف أنهم من يتوجونها عليهم رغبة منهم وليس قدرة منها. صراحة الخوف، ونشوة الإدمان يتحدان لأسرها وراء أسوار تعلو، ويسحبانها لدائرة اللا رجعة. والآن إبراهيم يريد هذه الدوامة، وهي كأمه يفترض بها أن تمنعه، ولكنها تجد المبرر لمجاراته، أو ربما لجذبه أكثر مما يتمنى هو. إنها لا تنسى يوم تركوها بشفاعة اسمه.. إنهم يريدونه، كما يبحث هو عن طريقه إليهم. إنه قدره، فلا داعي لإرهاق نفسها بمعاندته.

يرن هاتفها.. إنها نورهان.. تنفر بشدة من الرد عليها. لها فترة تهرب من لقائها، ويجب ألا يستمر ذلك. المثل يقول "المال السايب يعلم السرقة" ومال نوّار كفيل بإثارة طمع أكثر الناس أمانة.

- ازيك يا حبيبتي لسة كنتِ على بالي
- لا يا شيخة.. أمال مش بتردي ليه، ولا عارفة الاقيكِ وبيجي 100 موضوع عايز موافقتك وتوقيعك

تتحسس بطنها، وتمط شفتيها في حسرة..

- معلش يا نورا الحمل تاعبني ياختي وموت نوَّار مش هين عليَّ وانا حامل.. ما انت عارفة

تتنهد نورهان مصطنِعة.. الموقف ليس هينا نعم، حتى عليها.. ولكن الحياة أولى من كهن الحريم هذا، إن كنت صادقة يا سميَّة..

- عارفة يا سوسو.. معلش.. أنت فاضل لك قد ايه لسة؟
- 3 شهور لسة يا نورهان.. وييجي ابن نوَّار

يختنق صوتها حقيقة لا اصطناعا، وتمسك عن الكلام كي لا تبكي.. يطول الصمت، فتقطعه نورهان في ترقق محسوب..

- خلاص بقى يا سوسو، خلينا في المهم.. أجيلك امتى ضروري؟
- تعالي يا حبيبتي بس تكوني فاضية ما وراكيش مواعيد علشان تفهميني كل حاجة بالراحة كده قبل ما أمضي لك عليها
- أكيد طبعا يا حبيبتي، حقك أكيد.. هاكلمك تاني بس أراجع مواعيدي واشوف ميعاد ناخد راحتنا في القعدة علشان انت وحشتيني موت كمان. يللا باي
- بالسلامة ياختي

على ناحية كانت واحدة تتساءل عما هو مهم، وهل ستكون بقدر فهم تلك الأشياء الأكبر كثيرا من حسابات حزم الجرجير. وعلى الجانب الآخر، كانت الأخرى تجز على أسنانها غيظا من كيد ضرتها لها بالابن القادم.

(6)

في الطريق إلى مدرستها، لم تزل بعض تسلية الأطفال ترسم ابتسامة على وجه اكتشفت مؤخرا معنى جاذبيته. تدفع الحجر الصغير بحذائها، وتمد خطوها وراءه.. تدفعه ثانية.. ثالثا.. يمتد حذاء آخر يشوطه قبلها في الرابعة.

ترفع عينيها في مفاجأة، ثم في غضب، حين ترى أنه تلميذ بزي المدرسة الثانوية المجاورة لمدرستها. يشير بيديه أن لا داعي للغضب، ويبتسم ابتسامة وضّاءة أظهرت أسنانه المنظومة البيضاء، ويسارع مبتعدًا. حتى إذا اتسعت المسافة بينهما، تمهل مجددا، وأخذ يتلفت بين فترة وأخرى ليرى ما إذا كانت وراءه لم تزل.

أما هي، فقد تصنعت الغفلة عما يفعل، واستمرت تشوط الحجر أمامها، تتحجج به للنظر للأرض، تخفي ابتسامة سعادة تأبى الاختفاء.

ياه يا عيدة!.. هل كبرت إلى درجة أن خفق قلبك للفتى؟.. إنه وسيم يستحق، ولكن يبدو غشيما خجولا ليس لعوبا بعد.. إنه كطفل، لا يغزوها الانبهار برجولته، بل ربما لم يمتلك رجولته بعد!.. لكن الفرح الذي تحسه إنما بنفسها، بأن مشاعرها تتخذ شكلا جديدا يناسب مرحلة تخطت الصغيرتين والخطوة المتقافزة بلا اعتبار لما سيهتز معها من نبتتين تكورتا أمامها وبدأتا تلفتان النظر. تلك السخونة التي اعترت وجهها حياءً أبهرتها. لم يكن عبثها من قبل إلا إرادة الطفل لشهواته وجرأته في تحقيقها، لكن في الأمر الآن متعة تختلف.. متعة أنوثة تضعف وتستحي وتتأوه.

"اسمك ايه" خضتها المفاجأة بتلك الهمسة بجوارها. أفاقت إلى أنها شردت حتى لم تلحظ أنه انتظرها عند ذلك الشارع الجانبي.. ذلك المجنون لا يحسب حساب أنها هنا قد اقتربت من المنزل.
المنزل!.. من الأفضل ألا يرى أين تسكن، فعلى وسامته يبدو متواضع الملبس، الجينز الباهت والقميص غير المكوي ذو الياقة المتآكلة تحيط برقبة كأنها لملك فرعون. إنها مستمتعة بالتجربة، لا تريد أن تفقدها، ولذا فيجب ألا يعرف عنها المزيد حاليا. ليس قبل أن يتعلق بها على الأقل.
تلتفت إليه بنظرة بلا معنى، وتجري من أمامه. لو رأى وجهها الآن لاكتشف اختلافا هائلا عما هو مستمتع به من حيائها الذي جعلها تفر منه- كما يعتقد.

...

في فراشها تتمدد، تغمض عينها وتتذكر عينيه، وتسحب وسادة صغيرة فوق وجهها، لتعيش قبلة هاتين الشفتين البريئتين على خدها. تشتاق عبث إبراهيم، ولكن ليس إبراهيم. اسمه يكاد يفسد لحظتها، فتتحول إلى نورهان وعبثها بها أيام كانت لم تزل معهم في فيلا نوَّار.. أهو مَلَك سيعيش معها قصة براءة وملاحقة وكلمة ووردة ولعبة دبٍ وردي بلا ملامح الدببة وتلك الأشياء البلهاء، أم إن عقله أذكى من ذلك وسيرضى ببعض من جهنم الاشتياق؟.. تضغط الوسادة على وجهها أكثر، وتكاد تصرخ من تلك النيران، وتسب فتى ساذجا لم يزل طفلا، جعلها تشتاق.

(7)

إنها الولادة.. القيصرية تحتمت قبل تمام الحمل بثمانية أسابيع، الانتفاخ الذي كان مقلقا لصغره بات مقلقا لتضخمه لدرجة لمعة الجلد لفرط شده. رأس الجنين في تصوير الموجات الصوتية كالبالون الممطوط بالماء، والذي أصبح أضخم من أن يمر بين عظام الحوض. يضغط على أعصاب الساقين وعلى حالب البول وعلى وعلى.. وأصبح لابد من تخليص الأم منه. ترقد سمية على سرير العمليات غائبة مخدرة، الشق في رحمها يتمدد تحت المشرط، والطبيب الاستشاري يطلب استشاريا آخر لمرافقته ومشاركته القرار.. طبيب التخدير يراقب الأمر بتوتر، والجراح يطلب منه إرخاء المريضة دون اعتبار للجنين في العقاقير المستخدمة، فهو ميت على كل حال، والمهم هو الأم فقط، وإلا باتا فقيدين بدلا من واحد.

الاستشاري الزميل يتعقم مسرعا، ويوافق نفس الرأي مسرعا، والممرضات يتحركن مسرعات في الحركة، ويعقمن عدة ثَقب العظم، ويثقب الجراحون عظام رأس ابن نوَّار بسرعة وبلا رحمة، لإفراغها من ماء خبيث يحتلها بدلا من المخ ويمنعها من الخروج من بيت السكينة حيث ظلمات البراءة ودفء الأم، يريدونه أن يخرج إلى ظلمات أخرى يعرفون ألا سكينة فيها ولا براءة، وإنما عمر من الصراع واللعب مع الألم؛ وإن كان في حالته لن يطول ألمه بها، وسيؤول إلى ظلمات أخرى، هي لمثله أكثر سكينة من بطن أمه. عضلة الرحم قد ارتخت لفرط تمددها، وأخذت تنز دماء تلك النائمة لا

تدري من الأمر شيئا، والتفكير في إزالة الرحم كله بما يحتويه يحتل المنصة.

في مثل هذه الحالة، الأم أولى بالرحمة وبالعمر.. لماذا؟ فقط لأنها الكبرى، والكبير هو صاحب الحق دومًا في شريعة البشر. هذا ما ستقوله عيدة متهكمة على الطبيب وعلى أصحاب العمائم، الذين يسمون الأم الأصل وطفلها الفرع، وكأنها تفضلت عليه بإنجابه، لا أنه جاء نتاج شهواتها، سواء للجنس أو للأمومة.

على أية الحال لم يكن الطبيب ليعيرها اهتماما، فما كانت أمامه إلا طفلة بكّرت بالمراهقة، وأمها هي مريضته، وهي من تعنيه.

ولأنها تعنيه، ولأنها الأصل، فقد خرجت سميَّة من الجراحة لم تخسر إلا بعض الدم، وكتلة من اللحم كانت تحمل ابن نوّار في ظلماتها، وقد تهرأت لفرط ما شقتها المشارط لإخراج المسخ منها، فبترها الحكماء وألقوها في القمامة؛ بينما كسبت ذلك الذي خرج أخيرًا برأس منكمشة ذات ثقب يقطر بقايا الحياة على الملاءة ببطء، وبعينين فاتحتي اللون متسعتين كبؤبؤي نار متقدة، وبأنفاس تأبى التوقف لثلاثة أيام، ولا أحد يحاول إسعافه، إلا صدر سميَّة، الذي يعجز عن مصه، فتعصره هي له في فمه.

ثلاثة أيام بين وليدٍ وأمه ليست فترة قصيرة. لقد ضمته، شمت رائحته تغمر صدرها بعبق البراءة والحب النقي، أخذت كفه الدقيق إلى شفتيها تقبلها ألف مرة. ثلاثة أيام لم يزعجها فيها، فلم يكن يبكي

أبدا. ثلاثة أيام أسمته خلالهم سميَّة، واستخرجت شهادة الميلاد باسم "مبروك"، عساه يعيش لحضنها، وإن عاش بعاهته.
ولم يفلح حضنها، ولا لبنها، ولا رباط الشاش الملفوف على جنيه فضي لكبس خرم رأسه، عسى مخه ينمو، فالله قادر!
ولم يقدر.. قالت عيدة. ولم تنهرها سميَّة. في تلك اللحظة هي فقط أمٌ فقدت وليدها وارتعش صدرها بردا بعد أن أخذه التراب منها. كانت تبكي أمومة اشتهتها لأول مرة، ثمرة لحب عرفته لأول مرة ولو مع الشيطان.
قالت عيدة، ولم تنهرها سميَّة.. في تلك اللحظة كانت الأم التي تحزن، حتى وهي تعرف أن هذا سيحدث.. ربما لو لم تره ما بكت.. لكنها رأته وضمته وأرضعته، وقاومت الموت نيابة عنه، فلم يكن يدرك أنه ينبغي أن يقاوم.
قالت عيدة، فنفذت الكلمة في حائط إحباط سميَّة وغضبها، وأراحها أنها قيلت، وأنها ليست قائلتها.
قالت عيدة بجرأة وصوتٍ عالٍ، فكاد إبراهيم يقتلهما معا، ككافرتين لم ترضيا بحكم صاحب الأمانة، يخلقها فيستردها أو يدعها كيف شاء، يتعجب، أو يجبر نفسه أن يتعجب، ممن لا ترضيان بحكم الحاكم. ولولا مشاريع وعَوز يلجئه إلى أمه، لنهرها.. ولولا اتقاء للسان بين صدغي عيدة يملك فضحه، ما سكت.
عيدة المزرية.. أمها تذهب إلى المستشفى وسط حالة من القلق تسيطر على كل من بالبيت، وهي تنزل إلى الحديقة وتتلصص عليه.

لقد رأته في الحديقة يكتِّف الكلبة الصغيرة إلى الأرض ويطفئ شهوته فيها. لقد رآها من ظهرها تسير في هدوء هو متأكد أنه مصطنع وأنها كانت تراقبه. إن أمرًا كهذا كفيل بأن يقضي على كل ما يبتغي لمستقبله لو افتضح.

لولا دار سميَّة الذي هو الأفضل لمشروع عمره، ولولا سره عند عيدة، لأراهما وجها لم ترياه من رجل يلمَّهما من قبل.

"لولا".. سلاح رهيب، من يجيد استغلاله يوقف الآخر عند ما شاء من الحدود. وعيدة تتقد مكرًا لتُضخِّم سلاح "لولا" مواجهةً به إبراهيم، وهو على غير استعداد لتلك المواجهة.

(8)

مبروك! أنت متأكد؟ ده اسم ده لابن السَّيد نوَّار ده؟!

ويرد بأنه متأكد.. ويزيد بأن مبروك الصغير مريض، قد لا يعيش، وبأن سميَّة لا تحيط الأمر بأي قدر من الإخفاء. عجبًا، ألا تحرص على.... تتفكر قليلا.. غبية أنت يا نورهان.. أي حرص وعلامَ تحرص؟! بل هي الذكية تلك المرأة كعهدها دوما، ذلك الذكاء الفطري الأقرب للمكر. العلن هو المطلوب في حياة وموت الوريث، الذي هي وريثته.. لقد ثبَّتت حقها بحق الابن في تركة أبيه، فلم يعد من احتمال للطعن فيه.

لم يعد من بد أن ترضى تمام الرضا بإدارة مجموعة نوَّار، ذلك أغزر عطاءً من تقسيم ثُمنِ التركة على زوجتين. أصبحت سميَّة الآن هي الاسم الأوحد كوارثة أصيلة وليس كوصية على الابن، الذي ما أتى إلا ليهبها ميثاق الترف ويرحل. لكن من يدري، فقد يكون كالخازوق ويعيش ويأخذ إدارة المجموعة أيضا.

تتأفف.. ما كل تلك السنوات التي تحمل همها دون داعٍ؟!.. ترتكن بظهرها إلى مسند الكرسي، الذي طالما استرخى فيه نوَّار وتعاظم على الحاضرين. تضغط زر الـ (مساج) فتبدأ دغدغة هادئة لظهرها ورقبتها. تغمض عينها وتشرد حيث تلك الليلة التي قضمت فيها معهم شواءً من لحم ذلك الرجل صاحب الكرسي -العرش- الذي تحل محله الآن.

أحببت سميَّة يا نوَّار، لا تنكر. نظريا، حسبما رأيت بعيني، وما ساهمت فيه بأسناني، أنت لست هنا لتنكر.. ولكني أحس بك حولها كلما قابلتها.. إنك على اتصال بها بشكل ما؛ أليس كذلك؟ لا يمكن أن تفهم سميَّة كل تلك المسائل، وتسألني وتحاسبني بهذا الشكل، مالم تكن معها، تبذر الوعي بكل الدقائق في رأسها.

(تتنهد).. ألهذه الدرجة أصررت على منحها نفسك؟.. عمرك ومالك؟.. أم أنك كنت أحمق، ففديت ابنًا لم أعرف أنك تمنيته يوما؟ ولكن ها هو يتمناك ويبدو أنه سيلحق بك، ويترك سميَّة على عرش أكبر تركة بين رجال الأعمال!

تلتفت إلى صورته على الحائط.. تتأمله في زي التنس، بقبعته الرياضية، التي تظلل عينيه، فتجذب الناظر إلى الابتسامة الأكثر تعبيرا عن النصر.. كان يحب هذه الصورة لنفسه كثيرا..

كنت تحب هذه الصورة يا نوَّار كلحظة توقيت رائع لاستقبال الكرة مفاجئا غريمك، الذي ظن أنه باغتك برميته. كافأتني يوم التقطتها، كما لم تكافئني على امرأة جلبتها لك، ولا حتى سميَّة. كنت شبقًا للجنس، وللمال، وللسلطة.. للغرابة.. للشذوذ في عبادتك.. كنت شبقًا لأن تكون إلها.. الشبق المطلق كان مرضك الذي فتك بك في النهاية يا نوَّار.. لكنك لم تكن يوما أحمق.

أفٍ لك يا سميَّة، لقد استعبدْتِني أكثر مما تخيلتُ ومما قد أستطيع الاحتمال، وكأنك الخلود المكتوب لطوق نوَّار حول عنقي. ترى أأكلمك أبارك، أم أواسي؟.. أتراكِ حزينة؟!

تشعر بضيق صدر يغير على مزاجها أكثر، فيصرعها على أرض الكآبة. تقف، وتترك مكانها، وتلتقط هاتفها، وتروح وتجئ في المكتب.. تتمنى أن تصرخ، ولكن لا أمل أن تفعل ذلك وهي حبيسة القواعد والناس والمكان.. تشتاق بشدة إلى الدار، حيث مات نوّار فداء ابن سيموت سريعا. حزينة..

حزينة أنا وحسودة وكل الغيظ والسواد في قلبي لن أنكره. أين طفلي أنا؟ أين طفلي يا سميّة يا ساحرة، يا من أخذت الطفل من ظهر نوّار لنفسك وأنا الأحق به؟..

تلهث.. تدمع، وتترك دمعتها معلنة.. تعود إلى كرسيها، فتجد دغدغة التدليك لم تزل شغّالة.. تسترخي للحظات وتعد عكسيا من عشرة إلى واحد محاولة التماسك، ثم تضغط زر الإنتركم، وتطلب من السكرتارية استدعاء رؤساء الأقسام، فيلبون مسرعين

- مدام سميّة ولدت، جابت للسيّد نوّار ولد..

تنتظر برهة تتفحصهم، ثم تكمل..

- اسمه مبروك

تترك دموعها تذرف في بعض فرج عن كبتها الثقيل، وتنتظر منهم كلمات التهنئة، فيقولوها.. فتنتظر حتى يسألها أحدهم عن بكائها، فيسألها أحدهم عنه، فترد عليه في حدة كأنما تصفعه لجهله بما لا يمكن جهله..

- أيوة زعلانة طبعا.. البيبي تعبان وهيموت!

(9)

مات مبروك، ودفنته في مقابر أهل چيچي. لا أحد يرفض ثواب دفن ابن أيام لا ذنب له. يقولون إنه تحنان على المدفونين من ملائكة القبر، فلا يُشهدون بريئا لم يعرف من الدنيا سوى أنفاس الهواء على عذاب المذنبين، والله يرحم الضال بالنقي، وليس معذبا للنقي بالضال، ولذا فقد اعتبره أهل چيچي هدية لموتاهم.

لم يكن لنوَّار أهل تعرفهم أو سمعت عنهم من أحد، كأنما هو حقا أتى من نسل إبليس، فعاش يحن له حتى قتله حنينه. ليس له أهل، وبالتالي ليس له قبر. هل يجب أن تفكر هي في ملكية قبر ليوم تحتاجه؟ لو عرف أهل چيچي أن أبا الطفل كافر، هل كانوا يرضون بدفنه في تراب هو من أجساد آبائهم وأجدادهم؟.. لا أحد يفصل بين مخلوق ونسبه، وما هو مخبأ يومًا، سيفتضح يومًا.

انتفضت في قشعريرة جعلتها تعض شفتها.. ماذا لو لم يجد أبناؤها لها مكانا يأويها حين تموت؟.. طوال عمرها تكره العري من السكن وتبحث عن الجدران. ما كان "السيد" من بعد "رضا" إلا صاحب جدران تسترها بأبنائها عن السماء والشارع. وحين ظهر نوَّار كانت له جدران أقوى، فأوت إليها، وهزَّها نوَّار فأتاها بمبروك، لترث أُكُلَه كاملا حلالا لا بغي فيه، فامتلكت جدرانها لأول مرة في حياتها.

على ذكر مبروك، صاحب الجدران، ومن ورثت عنه أكثر مما ورثت عن نوَّار، سالت دمعة.. ثم ارتسمت ابتسامة رائقة، وأمل في أن يشدها إلى

الجنة. تتذكر حين كانت صغيرة بالكاد تشرئب لتطل من الشباك، أو لتأخذ القلة من على رخام حوض المطبخ. وكانت أمها -داية القرية- تأخذها معها إن لم تجد جارة مستيقظة تتركها لديها، وما أكثر صراخ الميلاد في الليل والجارات نيام. كانت أمها إن مات المولود تقول لأمه إنه سيأخذها من يدها للجنة.. تماما كما سيأخذها الحبيب مبروك.

هزت رأسها تعنّف وسوسات تهاجم نافوخها.. لا ذنب لمبروك فيما كان أبوه. إنه رائحة الملائكة في هذا البيت كله. تشعر بغصة.. تبغض للحظة إبراهيم وقسوته، وعيدة وفساد روحها.. تنكرهما، تتمنى لو تتبرأ منهما، وتكون فقط هي ومبروك.. فقط مبروك، وتوبة منها تمنح يده الصغيرة المنمنمة القدرة على الأخذ بيدها إلى الجنة، وإعفائها مما جنت. أهو احتمال وارد؟.. ما كل هذا الخوف؟!

تجول بنظرها في الجدران حولها، تستمد منها حماية تفتقدها.. تقف عند ذلك الباب المخفي، المؤدي لحجرة عرسها المخفية بين حجرتها وحجرة نوّار. تفكر..

كنت تؤنسني يا نوّار، حتى أيام كنت أخافك.. لماذا بعدما ذهب الخوف، وأحببتك ذهبت؟.. كأنما مكتوب عليّ الخوف.

تقوم من مكانها، تمسك ببطنها التي ما زالت تؤلمها بعد كل هذه الشهور، وكأن لنوّار بقايا من نطفته تتشبث برحمها -أو بقايا رحمها الذي مزّقه مبروك- لتسممها. تفتح الباب، كما علمها يوما طريقة فتحه. تقف دون الدخول، تراقب الحجرة، وأثر آخر لقاء لهما لم يزل

بها. تخطو بقدم، تتأمل الفوضى التي خلفاها على الفراش.. الكأس الذي تعفنت فيه بقايا عصير كان حلوًا ذات يوم.. النور الأزرق الذي كان يعشق جسدها متلونا به.... يا ويلك يا سميَّة أن غرقتِ في يمّ الذكرى. ترجع.. تغلق الحجرة وهي ترتجف، وتثب إلى سريرها مقررة أن تعتبر علمها بما وراء هذا الباب وهمًا لم يحدث يوما.

تتقلقل من فرط توتر يتزايد.. تتمشى في عصبية في الحجرة الواسعة. حتى تشعر بسمانتي ساقيها تتقلصان وتؤلمانها. فتتكئ إلى حافة المنضدة الصغيرة في ركن الحجرة، والشباك خلفها يلقي شعاعا من بقايا شمس لم تزل تسعى للاختباء في حضن الأرض، ثم تخرج إلى السماء عروسا تشرق وقد انتشت طوال الليل بجماع لم يعد لسميَّة شوق إليه. يمر النور بجسد سميّة في طريقه، فيستحيل ظلا أسود ملقى على الأرض أمامها، يحمل نفس حدودها الخارجية، تتأمله للحظة، فتكتشف أن شعرها مشعثا كمجنونة.

(10)

كفان يتحايلان على اللقاء للحظات كل يوم، ثم ذراعان يجترئان على إحاطة خصري صاحبيهما في تحدٍ مراهق للشارع، يثير سبة من أحدهم، وابتسامات من كثيرين يتمنون الحب أو يتباكون على أيام صفاء المراهقة. امرأة تقلِبُ شفتيها، ثم يُصَفِّرُ صوتها حين تجاور عيدة، وتقول لها إنها سوف تبلغ أباها الذي تعرفه، فتضحك عيدة وترد عليها بوقاحة، وهي تزداد ضمًا لهيثم، وإراحة لرأسها على كتفه، بسؤال تهكمي "أبانا الذي في السماء؟" فيحمر وجه المرأة وتظن في نظرتها قوة ستنسف العاشقين، وما فيها –حسب تفسير عيدة- إلا غيرة نسوان.

كل يوم يوصلها هيثم إلى قرب بيتها، الذي عرفه ولم يهتم بمظاهره، فهو يرى نفسه –كسائر المراهقين- سيستحدث ما لم تعرفه البشرية من سعادة لا يجليها للدنيا إلا أمل الفرسان. ربما في الحقيقة طمأنه أنها ليست ابنة صاحب البيت، وفقط هي ابنة امرأة بسيطة أعجبت الثري فتزوجها. بدورها عيدة حكت له عن أمها أنها ليست إلا بائعة جرجير في سوق شعبي. حكت له كثيرًا عن السَّيد، ربما أكثر مما حكت عن أمها. قالت له إنه كان الأب الوحيد الذي عرفت، وأن أمها باعته، ولكن في الحقيقة بمقابل يستحق البيع. قالت في تفهم إن أمها معذورة، فقد كان عاجزًا وخدمته شاقة إلى جوار قضاء اليوم في السوق وزرع حوش البيت وبخله عليها أيضا. يومها ضغط يدها ثم

رفعها إلى شفتيه خلسة من المارة وقبلها، وأقسم لها أنه سيعوضها ما افتقدت من حنان الأب.

تلاقيا كل يوم، وطال اللقاء والطريق شيئا فشيئا، عبر شوارع أطول يلفان فيها يتحايلان على الوصول. لكن ظلت لقاءات طريق العودة من المدرسة بخيلة على طموح مراهقين، فتواعد الطفلان الكبيران مساءً، فقد كان ذلك ممكنا منذ البداية دون أن ينتبها.

لا حائل بين أمانيهما في اللقاء المسائي، فهيثم ولد، من الطبيعي خروجه في مجتمع تعارف على إطلاق الولد، وعيدة بلت في بيت لا يدري أحد عن أحدٍ فيه شيئا، اللهم إلا جيجي، التي تبتسم حين تراها تزين شعرها في أنوثة ساذجة، فترفعه في ذيل حصان عالٍ بشريط فاقع اللون، أو تسدله على كتفيها منتشية بانتثاره مع النسمات، أو تلون شفتيها بزبدة الكاكاو اللامعة. تلاحظ جيجي، ثم لا تعلق، متصنعة عدم الانتباه لما تفعل عيدة، ومتعمدة أن توّصل إليها أنها مدركة للأمر في نفس الوقت. مريحة هي جيجي وذكية، تعرف متى تتكلم ومتى تسكت، ومتى تساعد دون أن تحرج أو تجرح من يحتاجها.

ومع الوقت، اللقاءات لا تطفئ شوقا، والسنوات تزيد الأجساد نضجا، وحضن الكفين والخصرين تكمله قبلة مرتعشة على سلم أية بناية في طريقهما، تنضج أكثر فأكثر فيختفي ارتعاشها، وتلتهم الشفاه بعضها بعضا، وتتسلل الأيدي إلى حيث الشوق ضاريا. ثم لا يكون بدٌ من ورقة عرفية، وشقة صديق، واكتمال العشق.

(11)

إلى أين يصل الجنون، إن لم يكن لما وصل إليه إبراهيم؟.. ماتت الكلبة لفرط استهلاكه لها.. سنوات وهو في قذارته، يزداد إدمانا لمعاشرة كلبة، ويعتزل البشر، وحتى دراسته اكتفى بالانتساب فيها كي لا يترك حجرته.

فقط في الليل، بعد أن ينهك النهار قوى الجميع، فيلجئون لمخادعهم، ينشط. تراه وهو يذهب إلى بيت الكلاب الخشبي في طرف الحديقة، ويدخل إليها. لم يكن هناك سواها، فقد أخذت نورهان الأب والأم وسائر الجراء سواها وقت طلقها نوَّار. سمعت أنها تبيعهم، وسمعت همسا بين الخدم أنها تقتلهم، وتأكل من لحمهم!.. لكن هذه الباقية كانت ضعيفة خرقاء، بدا أن بها علة ما جعلتها تتركها هنا. أتراها تركت فيها سحرًا ما، هو ما جذب إبراهيم إلى هذا المجون العفن؟

تتذكر.. في بداية اكتشافها للأمر، كرهت الكلبة، وحاولت أن تدس لها السم لتتخلص منها. أكانت غيرة منها على مكان كانت هي من تحتله تحت عبث إبراهيم؟، أم كان قرفا من علاقة صدمتها وهي إذ ذاك لم تبرح الطفولة؟، أم كان الأمل في إنقاذ أخيها باضطرار رابطة الدم؟.. أو ربما ليست المعزة والرباط وإنما كانت تريد أن تفقده لذته الوحيدة التي يعيش بها، من باب الغل الذي لا يبرح قلبها تجاهه.

في نهاية الأمر لم تفعل أي شيء.. لم تكلمه، ولم تصرح بمعرفتها لما يفعل، وإن تعمدت أن يلمحها، لتدعه بين شك ويقين أنها تعرف. كانت

تتسلل مرات ومرات، وتحاول أن تقترب أكثر ما تستطيع، لترى ما يفعل. أنين الكلبة لم يخل من لذة بدا معها أنها أدمنته عشيقا فلم تعد تقاومه، بل كانت تراه قادما فترفع ذيلها، وتسبقه إلى داخل البيت الخشبي. وكانت عيدة تكتم أناتها المنفلتة مع انتقال اللذة إليها من الكلبة.

لكن المسكينة كانت في آخر أيامها تعوي وتلف حول نفسها في ألم.. طوال ذاك اليوم الذي ماتت فيه، راقبتها عيدة من شباك حجرتها، وبكت.. مريضة تلك المسكينة.. لقد ألقى بقاذوراته في بطنها، فأصابها بجرثومة ما.. بالتأكيد هذا ما حدث.. أو ربما فجَّر أعضاءها نتيجة لعنفه فتسممت أو نزفت دمها داخل بطنها. كم تمنت أن تجد طبيبا يشرِّحها ويكشف أمر إبراهيم ويرسله إلى مستشفى المجاذيب.

أمها تعرف.. بالتأكيد تعرف، وإلا فلماذا رفضت أن يتخلص الخدم من الكلبة حين بدأت جنون الألم؟ إنها بالتأكيد تحفظ سر ابنها المحبب..

تضحك بتهكم، وتهمس من بين أسنانها:

- اللي هيدخلك الجنة بالقرآن اللي حفظه في المدرسة

تشتاق إلى هيثم كثيرًا.. تتمنى أن يحتضنها الآن وترمي حزنها على كتفه. حتى الاتصال به غير متاح في معسكر التجنيد، الذي أخذه منها.

....

حين أتى بها نوّار للعيش هنا كانت الكلبة بالكاد وليدة أسبوع. كانت جروا مرفها ومرحبا به أكثر منها هي الزوجة الجديدة. تتذكر أنها كانت تكن لها رهبة هي وأبيها وأمها، وأنها كانت تتمنى أن تحظى بما يحظون به من اهتمام وتبجيل أهل الدار. لقد ولدت وتربت في هذه الحديقة، ولتمت بها.

الألم في ضغائها يقبض نفوس البيت كله، وهي أولهم، ولكنها لن تطردها.. تصر، ويطيع الجميع مرغمين. ذاك السائق الحقير، قالت لچيچي أن تسلمه راتب شهر آخر، وعليه أن يبحث عن عمل في أي مكان عدا هنا. كيف يستبيح القتل لمجرد أن ضايقه الأنين؟!.. أرّقها التساؤل إن كان على شريعة نوّار، لا صعب على نفسه لأجل راحته.

- سيبوها تموت مكان ما عاشت.

وبصوت لم يسمعوه.. "استحملوها شوية".. وبدمعة سالت خفية في حجرتها، حكت لنفسها أحاسيس مخبولة لا معالم لها تربطها بحال الكلبة المتألمة، وبصقت روحها مستنقع رعب خلب وعيها..

....

كلهم يعيشون الاكتئاب لأجل كلبة.. حيوان حقير عاش مرفها في حديقة فيلا وله بيت يأويه من البرد والحر. يأكل اللحم ويشرب الماء النظيف. لو أنهم أهل إحساس حقا، لأحسوا بمن حولهم ممن يملؤون الشوارع.. يبكون كلبا ولا يبكون البشر.. ممثلون، ممثلون، ليسوا أكثر.

حتى أنا هنا، أتألم بمثل ما تتألم به الكلبة.. أنِزُّ صديدًا أكثر مما أضخ من البول.. الحمى تأخذ من عقلي شيئا فشيئا، وأقراص البنادول وذلك المضاد الحيوي الذي جلبت من الصيدلية بلا نتيجة. أزداد وهنًا، وأولئك الممثلون لا أحد فيهم يسأل أين أنا، وبالاسم فقط لي أم وأخت يقطنون نفس البيت، وفي البيت ملء حارة من الخدم.

ماتت الكلبة.. والصمت بعد موتها كعزاء منصوب، الكل يصوب العيون إلى الأرض والأقفية إلى السماء. بلهاء جميعهم، أجاهد نفسي ألا أصفع أقفيتهم المتصدرة.. بُلهاء يتعامون عني وعما بي، بحجة الحزن على كلبة!

(12)

في المستشفى وقفتا عند حافة سريره، وهو مسجى فوقه مرخيا لا تكاد الحياة تدب في عروقه إلا بعض بقايا تشنج ينفض عضلاته. تتلمس سميَّة القطع المدمم على شفته السفلي حاملا رسم أسنانه. مستمرة في بكاء لم ينقطع منذ وضعوه على جهاز التنفس الصناعي، في غرفة عزل الرعاية المركزية، خشية نقل العدوى للمرضى الواهنين بالقسم، وأجبروهما على لبس ما يشبه عباءة المجانين وتغطية أكفهما بقفازات وأنفاسهما بقناع ورقي.

ما بين خنق الدموع لحلقها وخنق القناع الورقي لشفتيها، بالكاد تخرج ألفاظها مفهومة..

- تسمم وصدمة، وانا ولا دريانة؟!.. توصل ان ابني يقع من طوله وانا قاعدة زعلانة على حتة كلبة! يا خيبتك يا سميَّة.. يا خيبتك في عيالك يا سميَّة

تعنفها عيدة، قائلة من بين أسنانها في غيظ:

- بس.. كفاية بقى.. اسمها يا خيبة عيالك فيكِ يا سميَّة.. واحد راح والتاني قرب يروح وأنت بتندبي حالك وبس

جاء رد فعلها في صفعة، لم تدر كيف تحركت بها الكف، ولم تدر كيف سقطت عيدة على الأرض من قوتها. أتتهما ممرضة سريعا، فأخرجتهما من الحجرة ذات الجدر الزجاجية التي فضحتهما، وقررت منعهما من

الدخول مجددا. مرت دقائق من محاولة سميَّة بين رجائها وبين تهديدها وبين إغوائها بالمال، لكن انتهت المحاولات على يد الطبيب الذي أتى فنهرها وابنتها، وطردهما من المستشفى بقرار حازم كتبه على ملف العلاج بمنع الزيارة عن إبراهيم، وأن المستشفى ستتصل بهما عندما تسمح حالته بالزيارة.

وكأنما حطت السنوات على كتفيها من قبل أن يحين ميعادها، مشت سميَّة تتكئ على ذراع عيدة، التي لم تعترض رغم ما كان منذ دقائق، فلم يزل يربطها الدم والشفقة بهذه المرأة التي تقترب من الجنون. تعذرها.. وصلت الابنة للسن الذي يمكنها فيه أن تعذر أمها، وإن لم ترض عنها.. وصلت أيضا لإدراك أن معذرة في مقابل ثروة هي صفقة ناجحة جدا؛ وثروة زوج أمها الراحل تستحق تحمُّل بعض الغوغائية من امرأة لم تزل تنضح أنوثة وبلا رجل. قرأت في كتاب سلله لها هيثم أن المرأة الجائعة للجنس تكون عصبية، وقد تصل إلى الاكتئاب أو المرض النفسي.

تبكي سميَّة.. تشرد مع أحوالها وتبرطم بالحديث إلى لا أحد.. إنها لم تقصِّر، بل لقد تركت دارها الخضراء وما فيها لأجلهما.. كانت لها حياة وقوة وانشغالا يملأ يومها، فتركتها لترعى لهما ثروة تحمي الولد من الحاجة وتحمي البنت من زوج يملك رقبتها. وحدها من حملت، ومات ابنها، ففرغ حضنها من أنسه الملائكي، ولم يشعرا بها أو تنال منهما مواساة.. وحدها من مات وتركها من قبل الابن أبوه، ولم تزل تتجدد كوابيس مقتله كلما اضطرت لمقابلة نورهان والنظر في عينيها، اللتين

تتحولان مع السنوات لبئر من الشر، وتتزوي فيهما سذاجة الادعاء التي كانت تنشع منهما أيام الدجل. وحدها الآن تحمل هم التخطيط للتخلص منها ومن تغلغلها في أعمال نوّار، ليحل -في الوقت المناسب- إبراهيم وعيدة محلها.

الجاحدان لم يحملا الهم معها يوما. فقط يطلبان، وكأنها الجنية المأمورة للطاعة والتلبية. لم تشعر أنها أنجبت وكبَّرت شابًا تخرج من معهد الدعاة، وحقق أمنية عمره فصار شيخا ذا عمامة، ولا أنها أنبتت ابنة عرفت طريق التفوق في دراستها، وأصبحت على أبواب الجامعة.

تغزها ومضة في ضميرها.. تتراجع من موقع الهجوم، لتقف حائرة لا تقبل دور المدافع. تعترف.. ليس فقط من أجلهما سعت وحافظت على المال والعلاقات وخططت للتخلص من نورهان. لم يكن من أجلهما كل ما بعد طلاقها من السّيد وزواجها من نوّار، ولا من أجلهما تحتاج للتخلص من أن تظل علكة تحت ضرس نورهان تلوكها كيف شاءت وتبعدها عمن شاءت.. لم تزل تحتاج رجلا لنفسها.. إنها لم تكمل الأربعين، ومن حقها أن تحتاج إلى رجل. لم تعد حاجتها الشبق كأيام نوّار، ولكنه الحضن.. كل هذا الطريق عبر سنواتها لم تنعم بحضن إلا في بداية زواجها من رضا أبيهما، ثم أسابيع عرسها مع نوّار؛ وعدا ذلك تشق العمر جَلِدةً وحدها، وداخلها خَوَخ ينهش هذا الجَلَدِ حتى سيسقطه كسقط شرنقة الحرير، لتخرج منها مجرد حشرة.

(13)

ستة أيام راحت من عمره لم يدر بها. أي رعب ذلك أن تغفل عن ستة أيام بأكملها، وتصحو لتجد أنها مرت وأنت في غيبوبتك؟!.. يشعر بأن عظامه مفتتة، ومفاصله متيبسة، والوهن يدب في خلاياه كما لو كان على وشك الموت. يقشعر لذكر الموت.. لن ينسى ما حيا وقت أفاق وأنبوب التنفس مخترق حنجرته، وسعاله وألمه وعجزه، إلى أن سحب الطبيب الأنبوب منه. أدمع من السعال ومن الألم ومن الفزع من مفاجأة وجوده في الحياة بهذا الوضع. لم يزل إلى الآن ينظر إلى التاريخ فيرتجف من قفزته.

عرف فيما بعد، وعرفت أمه معه، أنه مصاب بنوع من البكتريا لابد أنه أتعبه وأصابه بالحمى مرات عديدة سابقا، قبل أن يصل إلى هذه الدرجة من التسمم ووهن الجسد والحمى. كلمهما الطبيب بأسلوب فظ فيه نوع من الاتهام، وكلاهما تلقى منه في صمت، وتجنب النظر نحو الآخر. ختم كلامه بتهكم شرس على المكتوب في خانة الوظيفة في ملف المريض أنه خريج معهد الدعاة. ولكنه -رغم كل تلك القسوة- لم يفش صراحةً سرًا فاضحا عرفه من فحص مريضه ومن تلميح أخته ذات مرة، فحمد له إبراهيم ذلك، ولم يقابل غلظته بغلظة.

خرج من الرعاية المركزة والعزل إلى حجرة عادية، حيث قرروا أنه ليس معديا لغيره الآن. أمه لا تبرح المستشفى، وتظل في خدمته، تأبى أن تخدمه ممرضة مكانها. بدت له تكفِّر عن تقصير طويل في حقه، ولكن

هيهات أن تتدارك ما آل إليه الأمر بينهما. أقصى ما يستطيعه ألا يغاضبها، وأن يقبل منها ودها.

تعجله لمشروعه تضاعف بعد فقدان أيامه. العمر ليس ممدودا ليضيع دون خطوة الآن وليس الغد، وسميَّة في أفضل احتمالات الاستجابة دون مهاترة. يقرر أن يفاتحها في الأمر حين تقوم من غفوتها على الكرسي. وتسبقه هي بمجرد أن تفتح عينيها وتجده متيقظا. فتسأله..

- عايز حاجة يا نور عين أمك؟

يبتسم في براءة يعرف حبها لمشهدها. يهم بانفراج شفتيه عن موضوعه، فتسبقه مرة ثانية..

- أنا عايزة أكلمك في حاجة يا إبراهيم.. (دون أن تنتظر تساؤله، ترفع ساقيها تحتها على الكرسي منكمشة، وتطلق عينيها إلى الحائط حيث لا شيء هناك) عايزة أجوزك.. عارف، تجيب لي عيل بقى وابقى جدة. بيقولوا مش بيهون موت العيل إلا عيل يا إبراهيم، وانا مش هجيب عيال تاني خلاص شالوا لي بيت الوِلد.. فرح امك انت بقى بجوازك وخلفتك.

فوجئ.. هذا آخر ما يفكر فيه. سكت، يحسب الأمر جيدا قبل أن يجيبها. من كل النواحي الفكرة جيدة. مظهر الزواج والأسرة يضفي على الداعية وقارًا مطلوبا، و....

- مش يا امه الجواز ده لازمه الأول استقر في شغلي ومستقبلي؟ أنا لسة....

تقاطعه:

- لسة ايه؟ الفلوس يا قدها بس انتم تصرفوها

ضحك.. أومأ برأسه أن لا..

- ده على أساس أني أقعد في حجرك واصرف فلوس إبليس؟

أكمل قبل أن ترد:

- أنا قلت لك يا أمي عايز أبدأ مشروعي في البيت ومش هاطلب منك حاجة تانية.. (وقبل أن تفكر، استدرك) وفي الحالة دي هاتي لي عروسة من بكرة وأنا اتجوز وعدي 9 شهور وشيلي العيل اللي نفسك فيه

تهم بالسخرية من كلامه، ولكنها تعود للصمت وتفكر في الأمر بجدية..

- أنت عارف الدار دي ايه اللي ساكنها؟
- عارف
- وهتقدر؟
- أنتِ عارفة الإجابة

تصمت مجددا وتدور عيناها في قلق..

- هم عايزينك من زمان يا ابراهيم
- وأنا مش عايزهم وهاعرف اتصرف ما تقلقيش

(14)

- حامل! بتقولي ايه؟ وببساطة كده وفرحانة

تضيق عيناها وتنقلب نظرتهما إلى التحفز..

- اه ببساطة، في ايه؟ متجوزين، واحنا الاتنين مش صغيرين، والفلوس والسكن موجودين، يبقى ايه المشكلة؟

يلف حول نفسه في عصبية.. ينظر إليها وهي متمددة على الفراش في هدوء عاصف..

- أنت بتسألي بجد؟ يعني أهلك ما عندهمش مشكلة أنك تروحي تقولي لهم إنك حامل؟!

تبتسم ابتسامة صفراء، وتشع عيناها شرًا باردًا..

- أهلي وحشين؟ ها؟.. عيلة سايبة وفجرة؟

يحمر وجهه.. يتلعثم

- مش قصدي كده وأنت عارفة

تقوم إلى حافة الفراش، وتنظر إلى عينيه في قوة..

- لأ مش عارفة. عايزني اعرف قل لي.. ايه مشكلتك دلوقت؟

لا يرد.. تقوم من الفراش ناظرة إلى ساعة يدها، وتقول له وهي تسحب بنطالها، وترفع قدميها لتدسهما فيه واحدة بعد أخرى..

- فكر كويس، والمرة الجاية ابقى قل لي هتعمل ايه.. وعلى فكرة البيبي ده انا عايزاه فبلاش أفكار عبيطة مش هتتنفذ، غير انك تعمل حسابك انه ابنك رسمي وأنت عارف أني أقدر اعمل ده.

يكاد وجهه يضخ دمه في وجهها.. يقول من بين أسنانه:

- أنت بتهدديني يا....

يتدارك لسانه، فيغلق فمه.. يهمس:

- آسف.. انت مجنونة وصغيرة ومش حاسبة أي حاجة خالص.. عموما خليني أفكر لحد السبت الجاي
- هو عماد راجع امتى؟
- الاتنين
- ماشي يعني السبت الجاي هنا برضه
- يومئ برأسه دون رد، بينما تنتهي هي من هندمة ملابسها أمام المرآة، وتسبقه إلى باب شقة عماد، دون أن تستحم هذه المرة.

....

- هي يعني كانت خدت رأي مين لما بدلتهم؟
- كانت كبيرة نفسها مالهاش أهل
- ده لو جاي لها عريس معلش.. إنما بتبدل السَّيد بنوَّار وطظ فينا!

تنتظر لبرهة لتمتص انفعالها، ثم ترد عليها:

- تفتكري أنت تقدري تعيشي مع السَّيد وتكملي عمرك معاه كزوج؟

تتأفف..

- كنت متأكدة انك هتقولي الحتتين الحمضانين دول

بابتسامة باردة تومئ أن أكملي، فتزفر وتكمل في نبرة أخفض..

- يا ستي وانا ما اعترضتش ولو عايزة تتجوز دلوقت ما تتجوز.. بس هي كمان مالهاش تعترض، هي حرة وانا حرة برضه. وبعدين ما هي بتقول نفسها في عيل، اديني هاجيبهولها، ما المحروس حبيب قلبها مش عارف يجيبه اهوه داخل على سنة.

يرتسم على وجه چيچي امتعاض تدفنه سريعا، وتقوم من مجلسها وهي تقول:

- ما تعايريش حد يا ديدي.. بتترد لك مهما اتهيأ لك أنه وهم وكلام سذج. عموما فكري هتقولي لماما ازاي

تجذبها من كمها مانعة إياها من الذهاب..

- ايه هو.. أمال أنا باكلمك في ايه من بدري
- تلتفت إليها چيچي فاتحة عينيها عن آخرهما، لافظة كلمة واحدة تحمل مأساة من الحمول على رأسها..
- إيه؟!

(15)

وإن كان من جنيَّة، فلن أبقى بلا ذريَّة. لست إبراهيم رضا إن لم يكن لي وليد ذكر بعد تسعة أشهر من الآن، أو أقل. هكذا قرر، وهكذا تيسر ما قرره. إنه ليس جديدا تَيسُّره، ولكن اللعبة ستختلف هذه المرة. الحسبة المتكررة دائما كما يلي: النساء الحوامل من حرام لا ينقطعن عن طلب مشورته والتوبة على يديه.. والطبيب مسالم راض بنصيبه من الصفقة.. والجنين السقط رزق أهل الدار الذي ارتضى أن يأتيهم به مقابل الحياد.

ما كان لابن سميَّة، الذي رضع لبنها حتى شارك أخته الرضاعة وهو إذ ذاك يلعب في الشارع مع الرفاق، أن يوقفه عقم عن حيازة طفل يشرّف مكانته وسط مريديه. وما كان له –في نفس الوقت- أن يتخلص من أهل الدار بلا صفقة. المسألة إذًا أن عليهم هذه المرة أن يتنازلوا عن حصتهم. هو من يأتيهم بها وبدونه سينغلق الدار عليهم.

تقول زوجته الغبية، التي أضاع عقلها البحث والقراءة، إن من الأفضل أن يسافرا للخارج لأجل طفل أنابيب. تقول إن الأمر ممكن، بأن يأخذوا نطفه من خصيتيه بإبرة. صفعها حينئذ. غرَّها المال الكثير والدار والعزبة والحراس، أو ربما غرها أنه خرج من الفيلا التي تقطنها أمه، فنست من هو وما تقاليده وأصول تراثه. بالفعل غبية أن فاتها ذلك، لكنها ليست بالغباء الذي يجعلها تقبل تربية طفل من حرام، بلا

أصل، وأن تنسبه لنفسها، بينما رحمها لا عيب به يمنعها من أن تحصل على ابن مخصَّب في خلاصها، ترويه بدمها.

إبراهيم يحجز الفتاة عنده.. ابنة رجل من مساكين العشش على الترعة، وامرأته تخدم في بيوت مدللات القرية. قال الرجل إنها مجنونة كأمها، يلبسها جن الترعة. وقال إنها في الحقيقة بنت أحدهم وليست ابنته. ضحك إبراهيم من تلك القرية التي يسكنها من العفاريت أكثر من مزاريب البشر. وعده أن يخلصها مما يتلبسها، وقد لاحظ أن بطنها منتفخا. طلب من أبيها تركها شهرين، على أن يأتي لزيارتها وقتما شاء.

هند حامل، جميلة، لم تزل نعومة الأطفال فيها تذكره بإغراء عيدة القديم، الذي تفتحت شهوته عليه. لم يحاول أن يسألها عمن فعلت معه تلك الفعلة الـ... التي سبق وفعلها مع أخته، مع كلبة، ثم مع زوجة لا تفهم في فجُر الفراش، فظلت كصورة عارية معلقة على حائط الحمام ليستمني على رؤيتها المختلي بالماء.

لم يسألها أن تحكي له شيئا. هو يريدها كما هي: خائفة، مرعوبة، لا تأنس إليه. كان يتركها في الدار وحدها ويذهب إلى بيته، يتركها وهو يعلم، ويسمع استئذانهم فيبتسم ولا يأذن.. ويأتي في النهار، ليجدها مصفرة لا تنبس بصوت، ويسوّد ما تحت عينيها أكثر، فيدرك أنها ترى من أسرار الدار، وأن وحدتها مع صغر سنها مع ضغط مشكلتها سيلتحمون معا لتمهيد الطريق لما أراد.

وكان ما أراد.. في الظلمة، بعد أن انصرف، ثم عاد، فلم تر هي من ذا الداخل عليها، وما قاومت إلا كقطيطة ترتعش. همس في أذنها أنها زوجته. قال لها إن الابن ابنه، وأنه سيدها. وقال إنها لو سألت من هو فسيلقيها إليهم.. هؤلاء الذين يتطفلون عليها في الليل.

شهور قليلة، والطفلة تضمر، وبطنها يكبر.. كأنما تمتص بطنها سائرها، فتزوي لتُشكِّل هذا المخلوق الجديد.. ابن كل القرية. هند وحدها تعرف أنها لا تعرف من منهم أبوه. وحدها تعرف أن القرية فسقت حتى استحقت أن يتحكم فيهم هذا الرجل الذي يظنها لا تعرفه. وحدها تعرف أن الخطيئة لم تجر في دمها، بل أنها ودمها براءة للقرية تحبس عنها العذاب الأليم، الذي سمعت الشيخ مرارا وكل جمعة يحدث الناس عنه. فقط لأجلها يرحم الله الذرة في الحقول والسمك في الترعة. فقط هي من تعرف، وهم يستصغرونها جاهلين.

(16)

فوجئ البيت بصداح لا يألفه.. زغرودة تملأ الفيلا بشعبية لم تعتدها الجدران منذ عمرانها. أجنت سميَّة؟.. بدا أنها جنت وهي تسمع أن حفيدين في الطريق لملء حجرها.. اتصل إبراهيم يبشرها باقتراب ميلاد طفله، ولم يدعها تستفسر، فأنهى المكالمة بألف حجة دون حجة، فوجدتها چيچي فرصة لإضافة طفل آخر إلى الخبر.

سمعتها.. سألتها في هدوء أو ذهول عما إذا كان لدى ابنتها دليل زواج. ردت- كأنها تبني المعادلة لكيف وصل الأمر للنتيجة المعلنة عليها الآن- إن عيدة وعت على أمها متزوجة من السَّيد عرفيا، فمن الطبيعي أن تتخذه أمرًا طبيعيا. تسمعها سميَّة، ثم تشير بكفها إلى فخذيها وتقول في رنَّةٍ ساخرة..

- هنا ابن إبراهيم.. وهنا ابن عيدة.. وانا جدتهم بقى

تنقلب من بعد الزغرودة إلى الولولة.. تصرخ في وجه چيچي وتسبها وتتهمها بسرقة البنت منها وإضاعتها. فتنسحب چيچي دون غضب، فلو أنها في ذات المكان لقالت نفس الكلام.. تحمد ربها أن هشام تزوج عند أبيه وما حمَّلها مشاكله.

سميَّة في حجرتها تنوح، وفي الحجرة المجاورة تبكي عيدة في صمت وغل. ما مشكلة تلك المرأة، وهي ما أتت إلا ما سبق وأتته أمها؟ أليس الحلال هو ما تريده تلك المرأة الكاذبة رغم أنها لا تعيشه؟.. أهو فقط ما بين الفخذين الذي يُسأل عنه بنو البشر من بين خطاياهم، فلما

حفظته في زبجاتها، اطمأنت على نفسها أنها الأفضل، فبكت ابنتها؟ تبا لها من متخلفة غارقة في حرام السكنى والمطعم والزيجة والأنفاس، ثم تولول لكون ابنتها أتت بزواج لم تشرك أحدا في قراره؟

تدخل عليها چيچي وقد احمر وجهها وبدا أنها ستنفجر، فبدأتها بالصياح، فكتمت چيچي فمها بكفها، وهمست:

- اتكتمي خالص.. الست خدت ضربتين في دماغها سوا

نزعت يد چيچي من على فمها، وقبل أن تقول كلمة، جذبتها إلى السرير، فأجلستها على حرفه، وجذبت لنفسها كرسي التسريحة، وجلست في مقابلها تسر إليها بما كان من أمر أخيها.

- مش فاهمة حاجة.. يعني هو اتجوز على البت مراته؟ طيب ليه؟ دي غلبانة، وبعدين العيب مش منها!
- مش عارفة.. ما فهمتش ولا هي فهمت حاجة، هو قفل على طول. بس واضح أنه عامل عملة وهي قلقت، لأن لو الموضوع عادي ماكانش قلّبها في الكلام وقفل

لكزتها في كتفها..

- وانت يا فالحة لقيتها قلقت تدبي الخبر في وشها ليه دلوقت

يعلو صوتها خارجا عن سيطرتها..

- اتلهي على عينك أنت وأمك واخوك وعيلتكم واللي جابوكم لسابع جد. روحي أنت كلميها لو فالحة وقادرة كده

تشير لها أن تهدأ

- ششششششش

ثم تبدأ في الضحك.. يحمر وجه چيجي أكثر، وتقوم إلى حمام الحجرة، فتضع رأسها تحت الماء، وعيدة تراقبها وتستمر في ضحك غنج. كان في أذن چيجي أقرب للبلاهة. تخرج چيجي من الحمام، تاركة الماء يتساقط من شعرها على ملابسها وعلى الأرض..

- ما اسمعش كلمة ولا تناديني لا انت ولا أمك لحد بكرة.. أنا هاروح للدكتور يشوف لي السكر وصل فين، أنتم هتموتوني ناقصة عمر

(...) ثاني النهايات

قال الطبيب إنها كانت تحاول قتله. أنها قالت: أنا أحق بالطفل.. قالت سأموت، ولأقتنيه أنا لا أنتم عند من سيرحمنا.. في النهاية، خدَّرها حتى توسِّع فخذيها فينتشله من رحمها المتمسك به مقاومًا طَلق الحياة.

وحين أفاقت هند، قالت في وهن إن الطفل ابن القرية.. ابن كل رجل في كل بيت في القرية كلها.. ضحكت حين قال لها طبيبها: اشكري شيخك الذي أنقذك من القرية، وسينسب الطفل لرجل صالح يسترك. ضحكت ثم لم تنطق. فكانت الضحكة الختام.

...

وأخذه إبراهيم.. نظر إلى عينيه فرأى كل رجل في القرية ينظر إليه ساخرًا.. كذَّب الطبيب، وأخذه إلى بيته.. صفع امرأته مرَّات دون أن يشرح لها سببا، ثم وضعه في حجرها وقال لها: ابنك "عارف".. افرحي، فابتسمت. نظرت إلى وجه الوليد، فتحولت ابتسامتها صدقًا.. بدا لها نبعا من رحمة، تفتح أبواب جهنم في الاتجاه المعاكس. ضمته وقالت لزوجها المنتظِر: "شكرًا".

أمرها إبراهيم أن أرضعيه.. حارت.. نظرت إلى عيني الوليد فحنَّ ثدياها.. كان بهما من قبل لبنٌ مرضًا، قيل إنه يحول بينها والحمل، فوضعته عليه، فامتصه، فغابت في لذة جديدة عليها تماما.

....

اختفى هيثم.. تعرف بيت أهله جيدا، لكنها لم تذهب إليهم، ولم تقاتل لأجل أن يظهر. أمها من أهل الواقعية، ففتحت البيت لاستقبال الوضع الحاصل، ولكن كان أن رضت بالهم ولم يرض الهم بها. لم تكن قلقة على سمعة ابنتها، وتلك الأمور التي تشغل بال النعام من البشر. طالما أن ابنتها متقبلة لوضعها، فليحترق من ليس في أيديهم سوى إخفاء منكرهم واللوم على الآخرين.

لكن لم يكن لكل هذا مردود مفرح؛ وليست القوة أمام الحياة دائما جالبة للفرح. قال الطبيب إن الأمر عادي لصغر سن الفتاة وعدم نضوج رحمها تماما. قال إنه لن يؤثر على القادم.. قال بوضوح إنها لم تعد تنتظر طفلا. في الحقيقة، هي لم تعد تنتظر الطفل ولا أباه.. ولم تعد تريد أمها وعيشتها النحسة.. ولم تعد تريد هذه الأرض الغادرة.

لم تعارض جيجي السفر معها، فهشام ابنها مستقر هناك، وربما يكون من الرائع أن تلقاه وأن ترى حفيدتها. وكانت نورهان نافعة لعيدة كعادتها، فرتبت لعيدة الدراسة في كندا، فهذا أكثر مما تتمنى، ليقترب حلمها من الكمال، رغم انحسار النجاح عن أعمالها في الفترة الأخيرة.

....

السكنى بلا سكينة وجع، وسميَّة موجوعة، والشوق يأخذها لأن تعود المعبودة، والدار لم يعد بها أحد يريد عودتها إليها، حتى من كانوا يسجدون. الناس أحبوا الشيخ، وحلول الشيخ التي تريح بآيات القرآن، التي يتغير تأويلها على لسانه، فيأتيهم بما يفك العقد وييسر الأمور

ويجعل الأمنيات محققة دونما ضمير موجوع أو إنكار متدين لما يفعلون. لعبها جيدا إبراهيم، حتى إن مولد طفله نصب له في القرية مولدًا لو قورن بموالد الأولياء ما ناطحوه بذخا وإقبالا.

يومها ذهبت، ظانة أنها ستفاجئ القرية بحضورها، وستضع إبراهيم في حجمه المتأقزم تحت ركبتها حين يرى بنفسه أي سطوة لها بالدار وبالناس. ويومها لم تحصد سوى بعض إشارات وتهامس تتساءل إن كانت هي أم ألا، ثم انشغل الجمع مع خروج الأم عليهم، تحمل الطفل على يديها، وتلبس عباءة بيضاء وترسل الوشاح وراء ظهرها لتتبدى ضفيرتان ذهبيتان أمام صدرها تصلان لفخذيها، وتشعان جذبا لأعينهم كأنها القديسة الجديدة.

ويلك يا إبراهيم، تتاجر بجمال امرأتك!.. هكذا قالت، وهكذا لم تقل إلا سرًا، وهكذا اتخذت قرارا ظل مؤجلا بطول سنوات ما بعد رضا الذي وضعها على أول الطريق الطويل يوم طردها بطفلها، بحجة تعديها على أمه يوم أرادت تزويجه بابنة عمه ليرث إرث عمه، الذي هو في الأصل إرث أبيه، وقد ناخت البنت بعد وفاة أبيها للزواج من ابن عمها، على ألا تشارك سميَّة دارا واحدة.

لكأن سر الأب مر من ظهره لظهر ابنه، غير عابئ برحم اتسع له ومنحه الحياة. رأت إبراهيم في ذلك الاحتفال كأنه رضا، ورأت في زيغ عيني امرأته، ذنبا ستحمله سميَّة ما بقي لها من عمر، منذ اشترتها بإغراء الذهب من أبيها لتكون لإبراهيم إطارا يزين لوحة الدين الجديد. ترى

ماذا لو علم كل هؤلاء المريدين، الذين سكروا مع دقات الدفوف أن أبو إبراهيم لم يمت ولا تدري أطلقها أم ليس بعد، أينزلوه من على عرشه، أم يقتلوها لإساءتها له؟ إنها لا تعترف بتلك الجثة التي وصلها على جناح طائرة، لا ملامح بها، وقالوا إنه رضا.. من أدراهم أنه هو؟ وكيف إذًا أنجب أبناءً أربعة من ابنة عمه؟.. لكن الجثة – الله يلطف بيها- أعطتها حريتها التي أبى أن يعطيها لها الحي.

ماذا تبقى من الرحلة؟ بيت كبير وامرأة بلا رحم!.. حتى البنت تنهي أوراقها للسفر بعدما فقدت جنينها وأباه. لقد أودعت لها مبلغا ضخما ميزانية للسفر تكفيها لسنوات.. وحتى چيچي تحمست للسفر مع عيدة طامعة أن تجمعها الدنيا بابنها مرة أخرى. غدًا ستتصل بنورهان، كي تقوم عنها بإجراءات التخلص من كل شيء، وليكن المال سندًا مدخرا في أي بنك إن احتاجت إليه، وهي مقررة -إلى الآن- ألا تحتاج إليه، وليبق لمن يبتغونه ميراثًا.

انسحبت من المولد، ولم تأكل من الحمص.. ها هي كل الخيوط تنقطع والماريونيت تسكن ركن حجرة الحاوي.. ألقت نظرة أخيرة على الوليد، فابتسمت "اقطع دراعي ان كان ده ابنك من صلبك يا إبراهيم".. ذهبت، لم تبت في الفيللا في تلك الليلة، بل اتجهت لفندق صغير بالعتبة، واتصلت بنورهان تؤكد عليها أن تأتيها في الغد، لأمر سيفرحها كثيرًا.

أطراف صناعية

(1)

چيچي: جوزي كان بيشتغل برة.. طباخ في مطعم في أسبانيا. ماكنش بييجي مصر خالص، كنت انا اللي اروح له في اجازة هشام. مرة لما رحت، جيت اغسل سناني بعد الأكل لقيت الفرشة مبلولة، فسِبتها. تاني يوم سألته هو انت فرشتك انهي فيهم، فقعد يفكر.. وبعدين ضحك وقال لي: "انتِ صح هي دي المفروض اللي بتاعتي بس انا بقالي كتير قوي باستخدم دي". بس، واستخدمت انا فرشته؛ هي يعني ايه المشكلة، ما هو لما بيبوسني ريقنا بميكروباتنا بيتلخبطوا في بعض

.....

كلام چيچي مشجع لي في لحظته، ولكني أعود لخوفي بمجرد أن تقوم. ما الذي يجبرني أن أتعرض للتخدير وعبث الأطباء كي أرتق غشاء مغشوشا، ثم أتزوج من فحل تسعده قوته حين يمزقه ثانية، ثم يعتاد الأمر ويزهد فيه، بينما تزوغ عيناه كلما مرت أخرى أمامه، وكأن ما بي من سكر استحلاه في البداية قد عاد فأصابه بداء السكر، فذهب بعافيته، ومضى يتحسر كلما رأى حلوة ترد فيه الروح. ثم إن كل من قابلتهم كانوا كهذه القهوة التي أدمنتها؛ إما سادة، يحملون للحياة المر.. أو زيادة، لا حاجة للنعمة بحضورهم!.. أنا أكتفي بفناجيني، وأزهد الرجال.

أتدرين يا چيچي، ذات يوم كانت سميّة تحكي في السوق أنها عادت من الغيطان؛ وقد كانت تعمل فيها لمساعدة أبي، الذي لا أعي عنه إلا أنه

مات، فلا صورة لدى أمي له، حتى شككت أنه خيال، وأننا – أنا وإبراهيم- ابنا حرام هربت بنا، ولذا لا نعرف لنا أهلا ولا أصلا. ربما هذه الحكاية هي ما تجعلني غير متأكدة من فحش منبتي، وأعود لتصديقها أن كان لها زوج.. حكت سميَّة لجارتها في فرشات السوق، حين سألتها عن الصلاة وأنها لا تقربها، متهكمة على حجة أمي الخالدة بأنها لا تحفظ التحيات: قالت إنها عادت من الغيطان تحمل أخي، الذي نام من طول اللعب وإرهاق شمس الصيف، وهي آنذاك حبلى في سابع شهورها، تلهث وتجر ساقيها. وجدت باب الدار مغلقا، فركلته بقدمها، لانشغال يديها ما بين أخي النائم، وكرنبة كبيرة ودهن لِيَّة، لتعد ما يشتهيه الرجل المعدود أبي، لأجل ليلة الخميس المقدسة. لم يفتح في الحال، وإنما ظلت تركل الباب، حتى فتح أخيرا وهي تكاد تُسقط إبراهيم من يدها، بعد أن أسقطت الكرنبة بالفعل. وسع لها، فدخلت وهي تسأله عن تأخره، فحمل الكرنبة ودخل وأغلق الباب، وقال في بساطة وهو يتجه بحمله إلى المطبخ، بينما تضع هي إبراهيم على أقرب أريكة، وتنهار بجواره، إنه كان يصلي.. لقد خبطت الباب وهو بالكاد قد نوى الصلاة. قالت لصاحبتها بالحرف: "وقتها كرهت ربنا". شردت، ودمعت عيناها، ثم مسحتهما بكمها في سرعة، وأضافت: "الحمد لله ان جت على قد الصلاة دي العيشة تكفِّر الزُهَّاد".

بالله عليك، أي زواج هذا الذي نتكلم فيه؟ أمثل أبي، أم مثل السَّيد الذي لم تردعه إعاقته، أم كنوَّار الذي ما ناب أمي من ورائه إلا حسرة ووصم بالنحس على الأزواج، وهي التي ما رأيت أطيب منها في هذه

الحياة؟!. لا عليك، لا تضايقي نفسك، أنت أيضا طيبة، وهناك طيبون بالتأكيد. ولكنهم بعيدون جدا؛ لن أشقى بالبحث عنهم، وحسبي أني أعيش إلى أن تنتهي الأيام وكل هذا العبث، ويذوب هذا الجسد الذي تستخسرينه في العنوسة إلى تراب وبعض ديدان تسرح في الأرض، وظلام أبدي.

يوما ما، قد أتوب وأنوب، وأعترف بأن هناك عدلا وهناك ربًا يعدل، لكن بشرط أن يغسل الرب هذا حسراتي على مدى سنوات خلقني لأعيشها.

چيچي!.. أين ذهبت؟ أكل هذا كنت أكلم نفسي؟!.. لا مشكلة، فهذا أفضل، فما قلت لك أراحني أن قلته، وأراحني أكثر أن لم تسمعيه. لكنك لم تحكِ لي سبب طلاقك!

......

ستفهمين يوما أنه كان زواجا ناجحا. لكن النجاح شيء والاستدامة شيء آخر. أنا لا أسميه طلاقا، لقد كان إقالة موظفة تعمل في الفراش بعقد شرعي. انتهت علاقة الزواج الناجحة قبل ذلك بسنوات، كنتاج طبيعي لاستمرار بعادنا، الذي لم يعد مبررًا بالظروف، وإنما كان أقرب لهوى نفسين تعودا أن يستقلا بأيامهما.

إنني أحمل ذكريات جميلة لهذا الزواج، والنهاية لم تكن بغضاضة الطلاق الشائعة بين من يفعلونها جراء الفشل. حاولي أن تحسبي الأمر بعقلانية يا بنت التكنولوجيا والحداثة.. إلامَ يمكن أن تطمحي من وراء

الزواج؟ ماذا تريدين من أيامك سوى ذكريات جيدة لأيام أخرى قادمة، لا تملكين فيها من النشاط سوى اجترار الذكرى تُسلِّيك على كرسي في شباك صغير، أو تستخدمينها كمشهيات مسموح بها بجوار طبق من الأكل المسلوق بلا طعم لأجل صحة خارت مع شيخوخة غزت سنوات عمرك المتبقية؟!

(2)

لم أعد أذكرك، ولا أريد تذكرك. أنت الفشل المحتم لهذه الأمة، وأنا اليسر الذي سيدخلهم في عبادة الله أفواجا. أنت من نفَّر الناس من المسجد حيث تؤم الصلاة، وأنا من حولت نجاسة أمي وسحرها إلى دار فتوى وطردت الجن منها. أنت من عقَّدت الحياة لي، وأنا من قررت أن أبشِّرهم بالحياة.

ماذا أنت الآن سوى مطرود من الإمامة مطارد من العسكر. وأنا يتسع داري، ويقوى سوري، ويلجأ الضباط لي إن أعضلتهم مشكلة مع أهل المنطقة.

أنا النجاح يا شيخي القديم.. بينما أنت لا تملك حُسنا في الدنيا سوى حفصة، وسأنزعها من مستنقع قبحك يوما.

....

متأكد أني أعرفك.. من أنت أيها المتعالي؟ أنا في سن أبيك يا ولد، فمهما علوت تكون تحتي. أول لمحة رأيتني فيها برقت عيناك بمعنى لم أفهمه، ولكنني متأكد من انعدام احتمالية طيبه، ثم تداركت مشاعرك ورسمت البسمة ووقار الشيوخ. أنت تعرفني وأعرفك؛ هذا أكيد.. لا أرتاح لك.. أعرفك ولن أرتاح إلا إن تذكرتك.

....

تريد اليسر لأجل امرأة وأنت من عسَّرت الحياة على مئات الشباب وجعلت الانتحار أقرب إلى قلوبهم من السجدة. تريد اليسر، وسأمنحك ما أردت، ولكن لا تلومن إلا نفسك بعد زمن لن يطول. انظر لي وحدق، فأنا واثق أنك تكاد تنفجر من عدم استدعاء ذاكرتك لي. واثق أني لم أكن إلا غلام ضيعته، فلن يحتفظ ضميرك بالكثير عنه. أنا تغيرت وأصبحت السَّيد الآن، وقد كنت يوما تصفعني وأنا أكاد أركع لصنم نبوغك الذي بنيته بطفولتي الساذجة من عجوة، والآن لن آكلها، فكلها السوس والذباب.

......

يسرتها يا مولاي، وحللت العقدة، الحمد لله. ولكن هناك شيئا لا يريحني، كأنما الفئران تعبث في عبي. كيف تحل مشكلتي بفتوى جهنمية، لا يأتي بها إبليس نفسه، وأنت تحمل لي كل تلك البغضاء، التي تأبى عيناك إلا مكاشفتي بها، في تناقض يزيد قلقي مع ابتسامتك الحانية؟

أعرفك.. أقسم أني أعرف قسماتك ونبرتك وروحك هذه.. ربما ليس تماما، أو قد تغيرت مع السنين، ولكن الشجرة تظل شبيهة غرستها وإن كبرت. عينك هي ما تغرّيني وتوقف رحلة الذاكرة، فلم تمر بروحي قبلا تلك النظرة العابثة بمفاصل خوفي.

....

قريبا جدا ستأتي.. لتسأل عن فتوى تريح بقايا ضميرك، الذي ستؤرقه مشاغبات اتِّباعك لفتواي الآن. قريبا جدا ستخطو درجة أخرى للأسفل، وستجرك لأخرى ثم أخرى.. لن أكون المسئول عن ذلك، فأنت من تريد.. لا ذنب لي إلا أن دعوت فاستجبتم لي، أنت وغيرك.. أنا الميسِّر للحياة وأنتم من تختارون التيسير، وفقط التيسير. يا شيخي العزيز، لقد وضعت قدميك وكفيك معا على طريق نهايتك.

(3)

الغرفة فقيرة مظلمة..

والخرق هنا وهناك..

والبخور..

والنار..

والعين الكحيلة..

ومساكين الفقر..

وبعض الهبل.

السَّيد يدمن دوره، كنصَّابٍ محترف، والسيِّدة السوداء تخرج من عباءة الخضوع إلى ثوب العبث، وتتوازن شراكتهما عن رضا طرفين. في تلك البلدة البعيدة عن كل الصخب الذي فرهو منه بأمر من نورهان وبرشوة سخية منذ سنين.. وتركته وأتت هي إلى هنا اختيارا، وقد تعبت ويئست حد الهروب من الجميع.

الآن، ومع التكافؤ المقنع لها وله، أصبحا الزوجين الأنسب، والشريكين الأكثر تجانسا. عاتبها بلا عتاب حين أتته.. قال لها:

- أنتِ دقتِ الرجالة يا سميَّة
- مانا كنت دايقة رضا من قبلك يا سيد
- والعزا!

- مش وشه يا سيد ومشاكله كتير والعيال عينهم فيه.. كبروا يا سيد ويظهر كده انه بقى حقهم.. وبعدين مين قال اننا هنسكت يعني مااحنا هنعيش كويس ونعمل لنا سمعة هنا انا وانت سوا

نظر لها في شوق لحنانها.. وتأملت هي قذارته المهملة، وسعلت من سوء رائحته..

- مانيش قدك يا سميَّة ده انت لسة صبية والعز حلاكي

أطرقت..

- مش بعد ما شالوا بيت الولد يا سيد، ما عدتش ست، بقيت ريش على مافيش خلاص (أزاحت الشال مع على رأسها..) شايف الشيبة عملت ايه في سميَّة؟ الصبية راحت يا سيد وما بقالناش الا بعض

النهاية

أعبث في زهرة قماشية معلقة عند خصري، على ثوبي الناعم المنسدل على حدود جسدي، دون ضيق أو تقييد. أبتسم، وأنا ألتفت لصورتها المحبوسة في إطار صغير على مكتبي الصغير، الذي لم أفرط فيه. ألتفت إلى المرآة، فأراها تتكرر عدا فرق طفيف، ربما يصنعه فرق العباءة والكحل وليس اختلاف الملامح. تكمل چيچي إعادة ترتيب أثوابي على الشماعات، بعد أن استقر رأيي على هذا الثوب الرمادي. تقف لبرهة ويد على خصرها والأخرى تشير بها كناظرة مدرسة، ثم تأمرني أن دعي عنك الزهرة السوداء، وخذي هذه البيضاء. تلتفت إلى الصورة، وتكمل خطبتها الأثيرة عن أن من فارقنا قد عاش زمانا لم نكن فيه، فلنعش زماننا دون أن يكون فيه، فهذا هو العدل.

حين لم أستجب، بإصرار اقتربت وخلعت مشبك السوداء، وثبتت البيضاء مكانها، وقرأت لي من الأفق عبارة أحبتها. قالت: "احملي الزهرة ذكرى وليست لوعة، فحزن الصغار يمنع إشراق الغد"

أتذكر هذ المشهد اليوم، وأنا أنزع الزهرة البيضاء، وأثبتها على الإطار الجديد الذي جاور الأول، وآخذ لنفسي الزهرة السوداء، وأبكي چيچي أكثر مما بكيت سميَّة، التي بات اختفاؤها كالموت.

نظرة أخيرة إلى المرآة.. أمسح الدموع التي ظننت أنها سالت، وألوّن وجهي قليلا، ثم أنزل في طريقي إلى البنك لفك ودائع أمي، التي حكمت المحكمة لي بموتها، ربما دون أن يحكم الرب بهذا بعد. إنها لي خالصة،

بعد أن قُبض على أخي بتهم عديدة، أعلنت معها امرأته أن لا ابن لها ولا له، وعرضت الغلام لتحليل الجينات فثبت كلامها، وحصلت على حريتها وبعض المال والذهب والدار التي كُتبت باسمها، وكذلك على طفل تحبه أبقته معها.

لا وقت للتفكير في كل ذلك، فشهادتي من كندا معي، والودائع تتفتح لي، والحياة قادمة لمن يقدم عليها، ولست إلا مُقدمة.

هذا الكاتب: فوزي فوزي شحاتة

هذه الكاتبة: فاطمة رجب

وباختصار، هما كاتبان شابان مميزان جدا، يستحقان التقديم والتواجد في مطبوعة مقروءة، ليتعرف إليهما الباحثون عن القصة الجيدة

الشوارع ملك لنا

فوزي فوزي شحاتة

بعد انتهاء يومي بالخيبة القديمة بين مكاتب السفر، خيبة قدم أهرمات الجيزة، كان لابد من التسكع في شوارع القاهرة. ولأن ميدان التحرير كان قريبا من آخر مكتب في القصر العيني، أحببت أن أهيج مراكز الحسرة على ذكريات كانت كالبرق الخاطف في حياتي. أشعلت السيجارة، ومررت إلى مركز الميدان.. كان يتوسطه نصب تذكاري، نصب ليس له ملامح إلا ملامح الفشل، وقتامة روح الفنان الذى نفذ..

- تتصور بالعلم يا بيه

- لا اتصور بيه انت

- طيب تشتري الصورة أو البطاقة

- لا خد الصورة والبطاقة وحطهم في..... حساب تحيا مصر نظر لي بعينين تعلو رموشها ذرات من التراب، فضلا عن رثاثة ملابسه، فأردت أن أقول له "أنت جعان وحالتك زفت، وشغال تبيع في أعلام وصور وبطاقات..." لكن خناقة بائعة الشاي مع شاب جعلتني أنسل من الميدان، عندما رفع أحدهم مطوة كانت تبرق في الهواء، لأتابع الكتل الخراسانية والبوابة الحديدية، والألوان الثلاثة التي تزينها.

رأيت عربه دوم على ناصية أحد الشوارع، فأخذت كوبا، أفرغه الشاب في كيس أبيض صغير، وانزويت على سور حديدي أتابع المارة، و أكمل

تظليل اللوحة التي تتشكل في عقلي. مرت فتاة صغيرة تحمل تليفون، مشغولة بتسوية خصلة شعر على جبهتها.. مرت، كما مر كهل يحمل جورنال رسميا تحت ذراعه، توهمت أن الحروف بالجورنال لزجة لزوجة العرق الذى يتصبب من جبهته. من بعيد أبصرت فتاة وجهها أحمر، وترتدي ملابس بيضاء وبنطلون أبيض، وجزء من أعلى كتفيها عارٍ. رأيت خلفها فتاة أخرى، كأنها التوأم لها، شعرها كستنائي مفرود على كتفيها، وتحمل زجاجة مياه وكتابا، وراءهما شاب كأنه من الشمع، وقد صبغته الشمس باللون الأحمر.. هل هي قبيلة بني الأحمر قد نقص عندهم الكلأ فأتوا الى عزيز مصر؟! لكن مصر ليس لديها عزيز الآن. بالكاميرا التي في يده، والتي كان ينظر فيها الشاب، كان يلتقط واجهات المباني، ونادرًا ما تكون في مستوى أفقي.

مر الفوج، وأردت أن أقول لهم: "خذوني معكم، فالسفن التي تمر على أحلامنا لا تأتي، وتسقط فى وسط المحيط. أما سفنكم فهي تشرخ البحر وتقهر سطوة اليَم. خذوني معك!

لكن أطبق الصمت على شفتيّ، ونفخت دخان سيجارتي، وانشغلت بمقارنة صورة بلادهم التي لا أعرفها -قد يكونون من بلاد الخواجة، الذين استعمروا هذه الأرض في يوم من الأيام- وصورة معاناة كل شيء هنا إلا الفسدة.

أبصرت بائعة كتب تستقر أسفل تكعيبة، كست قامتها بكيس بلاستك أزرق. كانت صامته صمت الموت، لكن حركات عينيها أخبرتني أن لديها كلاما وحكايات. فاحترمت انتظارها لمن تحكي له، ورجوتها أن تبعثه لي، لأفضفض معه في لعن الغشم وسطوة البندقية. هل لكِ ابن قد واراه

الثرى، أم زوج قد هجرك؟ هل هو كسيح قعيد؟ هل تذهبين إلى الحسين، وتتعلقين بأستار المقام؟.. هل تضعين نذورا؟.. هل تأتي المراكب دائما بما تشتهين؟!!.. نظرت لي بوجومها القاتل.. بكم كتاب "الرجل الذي باع سيارته".. لم أكن أكملت اسم الكتاب بعد، عندما أخرجت صوتها ضعيفا واهنا:

-..بـ 20 جنيه

ضربت يدي في جيبي، رنت قطع النقود رنين الوجع والجدب.. أخرجت لها الـ 20 جنيها، ولم أتعبها في النقاش حول المبلغ.

امسكت الكتاب، ومررت فوق باقي العناوين المعروضة.. مطبخ، وأطفال، وكتب اقتصاد، وهاري بوتر، وهياكل عظم ودماء.. وانتشلتني رائحة الكبدة من عربة في شارع فرعي.. مررت عليها، واكتفيت بالرائحة.

فتارين الملابس وأسعار نار.. محل للعطور.. قهوة ريش وعمنا نجيب محفوظ.. هو من أتى في مخيلتي عندما أبصرت النادل بزيه المميز. مر هنا الكثير ممن عانى، والكثير ممن اقتنص لحظة الألم ليدونها بين السطور.

بوتيك آخر وملابس معروضة على حامل في الشارع "بـ 2.5 أي حتة".. أتى الصوت من خلف ظهري، تلفت ورائي لأجد سيده تبدو من لهجتها وملامحها أنها من إيطاليا. كانت تضحك مع الباعة، كأنهم يعرفونها جيدا، أمسكت تيشرت رياضيا أصفر اللون، ووضعته على صدرها ورقصت به.. "بـ2.5 تعالى بص..ها ها ها"

في دوران آخر، كانت هناك مكتبة الشروق. عناوين الكتب مغرية، لكن أسعارها نارًا مؤصدة. أخذت أستنشق رائحة الكتب الأثيرة لدي، وأجول النظر في الأغلفة.. روايات اليف شافاق وباولو كويلو.. فلتحرسكم ملائكة السماء، أما نحن فلنا الله..

قرصني الجوع، بحثت عن مطعم، الكاشير به يحتل منتصف شارع المشاة، أخذت منه ساندوتش. مرت بجواري فتاة من الصين -كما يبدو من ملامحها- تحمل شنطة سوداء، وتنتعل حذاء رياضيا.. من بلاد الله إلى خلق الله.. لم أبتئس عندما رأيت سائحا أسمر البشرة وشفتاه مكتنزتان، يرتدي شورت قصير وتيتشرت على صدره علامة صح بيضاء.. أين القبعة أيها الخواجه؟!!!

مررت بشوارع، وتفاديت سيارات.. شاهدت أصباغ نبتت أسفلها ملامح وجوه.. أرشدت سيدة تسأل عن مكان -حسب معلوماتي القليلة عن المكان-.. أبصرت امرأة تدخن سيجارة في بلكونة مبنى سكني.. تشاجرت مع شخص أراد أن ينصُب عليَّ في شاليه بنظام التايم شير. ضغطت على أسناني لتخفيف ألم الصداع، ومسحت محاجر عينين من التراب.. دخنت أكثر من سيجارة، ووصلت العتبة<

"أحسن بلد يتعمل فيها كباري.. وأحلى ناس بتضحك بعشم.. والشارع عريض، وناس أكثر وفتارينه طويلة.."

متع عينيك، وأمعن النظر.. رنة الخلخال والشال البلدي، مع اكتناز الجسد في العباءة السورية، كانوا ما ينقص سيدة انتصبت أمام فرش ملابس داخلية، عليها شاب نحيف وشعر رأسه منتصب إلى أعلى،

يصيح: "احمر شفتشي.. ليالي حمراء وقمصان بتنور في الضلمة... قرب، قرب، قرب.. تعالي يا مدام، قربي يا آنسة.. شغل مستورد بلاد برة...."
رد عليه بائع العباءات: "مين قال هات؟ عبايات سوري عبايات تركي........"
مررت أخترق الشارع أكثر، بقوة الدفع من الاكتاف والزحام.. "اشترى شراب يا بيه .. التلاته بعشرة جنيه"

على فرش عريضة تراصت أحذية تلمع في وهج الشمس..

"الجلد الطبيعي الجلد الإيطالي.. نحن نحطم الأسعار.."

أمسكت حذاء، فأقبل البائع مهرولا..

"ايوه ..قيس يا كابتن قيس.. لو بصيت على أي فاترينه مش هتدفع فيه أقل من 200 جنيه؛ عاوز تدفع كام؟"

وضعت الحذاء ..

"هارجع لك تاني" ..

"هتلف ومش هتلاق زينا .. ايوه يابيه .. "

"اشتري بنطلون جينز إيطالي ومعاه تيشرت.. الاتنين بسعر واحد.. خد فكرة وتعالى بكرة .."

كان أحدهم يعتلي كرسيا ويمسك في يديه ميكروفون، بجواره شاب آخر يفتح الأكياس ويرمي الملابس فوق بعضها، وعندما يرمي قطعة تتلقفها أيدٍ من حول الفرش لتفحصها، ثم لتعود مرة أخرى فوق

الكومة، وعندما يعجب أحدهم بقطعة، يضعها فوق كتفه..... وقفت فوق رصيف للمشاة ألتقط أنفاسي، وأشاهد خناقة شابة صغيرة تحمل على صدرها طفلا رضيعا نائما. كانت الخناقة مع سيدة عجوز، فهمت أنها أم زوجها..

"ايه يا حماتي.. قلتلك بلاش البشكير ده، دا ألوانه مش حلوة"..
"مفيش غيره اللي هتشتريه.."

طال الجدال، ولوت العجوز فمها اشمئزازا من زوجه الابن، عندما انزوت الشابة لتسكت بكاء الصغير.

مر بجواري سائح، ربط شعر رأسه بقطعه أستك مطاط..

how can I go to this place ?-

فتح كتابًا على خريطة للقاهرة ، فترجمت اسم المكان، وسألت عنه شابًا أسمر اللون، يحمل على يديه صينية شاي.

- هو عاوز يروح فين بالضبط؟

أخبرته مرة أخرى.. فكر قليلا بصوت خافت..

- يركب المترو، وبعدها ياخد تاكسي... معلش يا أستاذ، ممكن تسأل له جوه المحل ده..

أصل انا مش من البلد دي.

"ودن القطة "

فاطمة رجب

أتابعه بشغف من وراء النافذة، أثناء خروجه من البيت محملا بباقي المأدبة. ينثرها فوق الرصيف للقطط، لتشق ريقها دون شق الطريق. أراهم كل يوم يعرضون صنوفهم في فرحة.. تعرض كل واحدة ما سرقت من أجل تلك الوليمة، ثم يبدأ الشجار.. ذكور القطط يستولون على ما أحضرت الإناث بفتور بالغ أحيانا، فهم يعرفون أنه لا مراوغة ولا حتى رفض، وإن ثارت قطة ستطرد من جنتهم، بعد فضيحة.

على مأدبة طعامنا، أراقب لقيماته الجائرة على حقي، حتى في كل طبق .. أعد عليه الأرغفة واحدا تلو الآخر.. تزمجر القطط، وأصمت مبتلعة مرارة خوف تحيل دقتي قلبي -المتسارعتين دائما- لرغيفين يفرك أحدهما بالآخر ليتخلص من الفائدة في الردة.. لماذا يصر دائما على أن يغرف الملوخية في قمع من الخبز يسميه "ودن القطة".. لماذا؟ أتخيل الأسطورة أن قطا لم يُحكَ لنا عنه، سحبته أذناه نحو صوت "شهقة إحداهن" وأنفه نحو رائحة لا يقاومها، وما إن رأى ذلك الوعاء الذي يذهبه في رحلة من النشوة، حتى قرر، إلا أن المخرطة جارت على أذنيه، التي غرقت كقارب "نورماندي" أمام عينيه.

صوته يناديني من الداخل، فيوقّف الخيال بعقلي

- جائع

يقولها
أترك أفكاري ساخنة تتعرق فوق شماعة المناشف، أرتدي قفازين قبل أن أسحب الصينية مقررة: سأثور في وجهه اليوم: "يكفي كل هذا الخبز، فلقد حذرتني صديقتي الطبيبة. على مريض السكري الإقلال من النشويات أيضا".. سأخبره: "سأغرف لك طعامك في صحن منفصل".

لكن على أعتاب أذنيه أجمد أنا أيضا. لا أتخيل طبقي فارغا من نثرات الردة الساقطة من رغيفه، تزين بعشوائية ما سيدخل جوفي.. تلك أشياؤه التي أحبها.

تزمجر القطط خارجا، لتقصر عليّ المسافات، معلنة ما يثير تعاطفه مع تلك الفكرة -فقط الفكرة- سأتبنى قطا من الذكور يشاركنا الطعام، يثور ويصفعنا إن جار أحدنا على حقه.!



Noon_publishing@yahoo.com

ت-35860372-02   011-27772007

المَلَسة

لو خيِّرت بين نوَّار وأن تظل سيدة إلهة، لن تختاره بالتأكيد. تعتقد، لم تزل، أنها ليست كافرة، بل تلجأ بالدعاء كثيراً، وما زالت تطمع في صلاة إبراهيم شفيعة عند رب السموات. ما هي إلا حاكمة لبعضٍ من خلقه، لكنهم مُجّانٌ، ينظرون الأخدود ما بين نهديها يتبدى من فتحة جلبابها، كذنبٍ صغير، فيعشقونها ويختارونها ربة. هذا جرمهم الساع بهم إلى جهنم، ولا يد لها ولا ذنب فـ وإنما فقط تستفيد منهم؛ والدين -كـ كان يقول خطيب الزاوية في السوق- يحرم المعاملات مع الكافرين.

الغلاف تصميم ورسوم عمرو الحم




ISBN 9789777780049

